رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الأسرة العربية في الأدب العربي

العصر الجاهلي - العصر العباسي

د. محمد عبد القادر غنيم

مجدلاوي للنشر والتوزيع

PHILADELPHIA UNIVERSITY

نشر بدعم من جامعة فيلادلفيا

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الأسرة العربية في الأدب العربي

(العصر الجاهلي ـ العصر العباسي)

حقوق التأليف والنشر والتوزيع محفوظة، ولا يجوز إعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه على أية هيئة أو بأية وسيلة إلا بإذن خطي من المؤلف والناشر.

الطبعة الأولى

1425هـ / 2005

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٠٠٥/١/١٠٤)

٣٠٦,٨٥

غنيم، محمد عبد القادر

الأسرة العربية في الشعر العربي / محمد عبد القادر غنيم.- عمان : المؤلف، ٢٠٠٥.

(١٥٢) ص.

ر. إ. : ٢٠٠٥/١/١٠٤.

الواصفات: / الأسرة // الأدب العربي // البلدان العربية// الإسلام/

*** تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية**

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر : ٢٠٠٣/١١/٢٣٩٦.

Dar Majdalawi Pub.& Dis.
Telefax: 5349497 - 5349499
P.O.Box: 1758 Aljubaiha
11941 Amman- Jordan

دار مجدلاوي للنشر والتوزيع
تليفاكس : ٥٣٤٩٤٩٧ - ٥٣٤٩٤٩٩
ص . ب ١٧٥٨ الجبيهة ١١٩٤١
عمان - الاردن

www.majdalawibooks.com
E -mail: customer@majdalawibooks.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الأسرة العربية في الأدب العربي

(العصر الجاهلي ـ العصر العباسي)

الدكتور

محمَّد عبد القادر غنيم

«نشر بدعم من جامعة فيلادلفيا»

قال تعالى:

﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾

[الشورى: ٢٣]

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾

[يوسف: ١١١]

قال عليه السلام:

«صلة الرَّحمِ مَنْماةٌ للعود، مَثْراةٌ للمال، منسأةٌ في الأجَل»

قال الشاعر العربي:

وحسبُ امرئٍ أنتَ امرؤٌ آخرٌ له

وحسبُـكَ فخـراً أنَّـهُ لَـكَ أوَّلُ

إهـداء

إلى أفراد أُسرتي، علّهم ينتفعون مما أبتغيه في هذا الكتّيب،

وما أودعتُ فيه من الصُّور والمواقفِ التي

تحثُّ على التحلّي بمكارِمِ الأخلاق

لتقوية روابطِ القُربى والتراحُم

القائِمَةُ على أساسٍ من

التوادِدِ والتآزُرِ

والتَسامُح فيما بينهم

ومع الآخرين.

واللهُ أسألُ السَّدادَ والرشاد والأجر والثواب

الدكتور

محمّد عبد القادر غنيم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تمهيد

الأسرة هي الخليَّة الأولى في نسيج المجتمع، واللبنة الأولى في أساس البناء الاجتماعي، لذا فهي المحور الأساسي الذي قامت حوله الدراسات الاجتماعية والفكرية والسياسية والفلسفية، كما كانت موضع اهتِمام الديانات السماوية والرسالات الدينية، كما نصت على تنظيمها الدساتير والقوانين الوضعية.

لقد لاقت الأسرة بجميع أفرادها كل هذا الاهتمام، لأنها مصدر استقرار المجتمع وتقدّمه ونموّه، فحرص الجميع (أدباء وعلماء وفلاسفة) على دعمها بما يكفل لها التماسُك والتوحّد، لبناء الأسرة الفاضلة المترابطة لتكون أساساً لمجتمع فاضِل.

وعندما جاءَ الإسلام، اهتمَّ بتنظيم الأسرة وأولاها اهتماماً خاصاً، مؤكِّداً تنظيم علاقة أفراد الأسرة ببعضهم، وعلاقة الأسرة مع غيرها من الأُسَر، ومع المجتمع الكبير من حولها، من أجل تكوين أسرة ذات أخلاق راقيةٍ متحضرة في السلوك والمعاملة، متوازنةً مع مبادئ الإسلام السمحة القائِمة على العدل والمساواة والودّ والتسامُح والتماسُك والترابُط بين أفراد المجتمع الإسلامي ككل، فالأُسرة هي الركيزة الأساسية للمجتمع الفاضِل القائِم على الاستقرار والترابُط والتآزُر والتعاضُد بين جميع أفراده المدعمة بالقيم الأخلاقية والدينية لمواجهة المتغيرات الاجتماعية والحضاريَّة التي قد تتعرَّض له، وقد أكَّدَ الرسول عليه السلام التعاوُنَ بينَ أفرادِ المجتمع، فقال: «**المُسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن فرجَ كربةً عن مُسلم فرَّجَ اللهُ عنه كُربةً من كُرَبِ يومِ القيامة**»[1]، وقال عليه السلام: «**لا يؤمنُ**

---

(١) صحيح البخاري: ج٢، ص ٨٦٢/ ٨٦٣.

أَحَدُكُم حتَّى يُحبَّ لأخيهِ ما يُحبُّ لنفسه»[1]، وقال عليه السلام: «المسلمُ من سَلِمَ المسلمونَ مِن لِسانِهِ ويَدِه»[2].

لقد واجهَت الأُسرةُ المسلمة كثيراً من التيارات والمتغيّرات الاجتماعية، حينما اتّسَعَتْ رقعة البِلاد التي دخَلَت في الإسلام، والاحتكاكات مع الحضارات الأخرى، لكنّ الأسرة المسلمة ظلّت متماسكةً مترابطة تقاوم جميع التيارات المختلفة معها في العادات والتقاليد والمبادئ والقيم الأخلاقية وأسلوب التعامُل والسلوك التي دعا إليها الإسلام، وأرساها بين جميع الأفراد في مختلف الحالات والمواقع التي يكون فيها الفرد من الأسرة تارةً أباً وفي حالةٍ أُخرى يكون ابناً وفي ثالثةٍ يكونُ أخاً وفي رابعةً يكونُ زوجاً. وفي هذه الحالات أو المواقع الأربعة يكون راعياً ومرعياً وعليه مسؤولية وفق موقعه منها، قال ﷺ: «كلُّكُم راعٍ وكلُّكُم مسئولٌ عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله وهو مسئولٌ عن رعيته، والمرأةُ راعيةٌ في بيتِ زوجِها ومسئولةٌ عن رعيتها» كما قال عليه السلام: «والرجل راعٍ في مال أبيه»[3].

وهكذا، وعلى الرغم من كل المتغيرات ظلّت الأسرة العربية المسلمة محافظةً على شكلها، متماسكةً ومترابطةً في جوهرها، لم تتأثّر بالمتغيرات الطارئة زمناً طويلاً، إذ كانت ذات طابعٍ أُسَري أبوي واسع وشامل، بمعنى أنها كانت تضم جيلين أو أكثر، الأب والأبناء والأحفاد يعيشون ضمن أسرة واحدة مع بعضهم، الزوج والزوجة أو الزوجات والأبناء وزوجاتهم وأبنائهم والبنات العذارى (غير المتزوجات) أو الأرامِل، وكل هؤلاء الأصول والفروع يعيشون في بيتٍ كبيرٍ واحِدٍ، ويعملونَ كرجلٍ واحد وجميعُ ما يكسبونه يُنفق عليهم جميعاً، كما أنهم يتوارثون الأسماء، حيث ينتقل اسمُ

---

(١) صحيح البخاري: ج١، ص١٤.

(٢) صحيح البخاري: ج١، ص١٣.

(٣) صحيح البخاري: ج٥، ص ٣٠٤.

الجد إلى الحفيد، وهكذا يتردد الاسم أجيالاً وأجيال، كما أنَّ الأرض المملوكة للجد أو الأب تظل ملكيتها باسمه ولا تنتقل إلى الأبناء والأحفاد إلاّ بعد موت الأب أو الجد دون إفراطٍ أو تفريطٍ، فإنَّ مثل هذه الأسرة الكبيرة هي التي تُعدُّ أسرة فاضلة، وهي الأساس للمجتمع الفاضِل، لترابطها وتماسُكِها وشراكة أفرادها، وتوادهم وتسامحهم في السرّاء والضرّاء بحكم، سلوكهم وتصرفاتهم وَفْقَ جُملةٍ من القيمِ الأخلاقية الحميدة، القائِمة على مبادئ الدين السمحة.

إنَّ مثل هذه الأسرة الكبيرة المترابطة المتماسكة، التي يسودها الوفاء والحب والوداد، ويحكمها عادات وتقاليد طيبة ومتسامحة، ظلّت صامدةً أمام جميع المتغيرات إلى أن وقع المحظور، وتَمَّ فتح الباب على مصراعيه أمام غزو الحضارة الغربية الهابطة، فبدأت تتسرب رياح التقاليد والعادات الغربيّة بكل ما تحمل من مساوئ الانحلال الأخلاقي السائِد في بلاد الغرب وعند الأمم الأوروبية، باسم الحضارة والنهضة والحرية والديمقراطية والتقدمية وحقوق المرأة، والدعوة إلى سفورها وتشجيع دور الأزياء والتبرج، وذلك عن طريق الاستعمار الثقافي، والاحتكاكات بين الشعوب والأمم والهجرات للعلم وطلب الرزق، وبالتخطيط مع سبق الإصرار والتعمد، لتطبيع الناس بطابع الحضارة الغربية الممنهج، ربما عن حُسن نيّة وربما عن سوء نية، إذ أنّها بَدأَتْ تَجِدُ في مجتمعاتنا آذاناً صاغيةً واستحساناً وقبولاً، فصِرنا نُشاهِدُ اليوم التباعُدَ والتنافُر بين أفراد الأُسرة الواحدة رأياً وفكراً وانتماءً، وبدأ التماسُك الأُسري ينهارُ شيئاً فشيئاً أمام الغزو المنظم، والنظريات الحضارية الاجتماعية التي ساهمَ في نشرها الكُتّابُ والبرامج الإذاعية والتلفازية، وتشجيع المرأة على التمرُّد بحجّةِ الحرية والحقوق الاجتماعية والسياسية، والخروج للعمل والعلم والسفور وغيرها.

إنَّ زيارةً عابرة إلى المحاكِم الجزائية أو الحقوقية أو الجنائية أو الشرعية أو الكنسية ترى العجب العُجاب، ترى بعضَ المتخاصمين إخواناً، وبعضهم أزواجاً وبعضهم آباءً وأبناءً وبناتٍ، مما يحزّ في النفس ويُدمي القلب ويجرح الإحساس ويخجل الشعور بالأسف على هذه الحالة، التي وصلت إليها معظم الأُسَر من التفكُك وعدم الترابُط، بدرجةٍ تُوازي ما يجب أن تكون عليه الرابطة من القوة والإعزاز والحب والتوادّ والتحلّي بالفضائِل والتسامُح، الذي أكَّدته مبادئ الدين وحثَّت عليه العقيدة الإيمانية، للبرّ والإحسان بين الأبناء والآباء والمودّة والرحمة بين الأقارب والأزواج والتآزُر وشد الأعضاد بين الإخوان.

ولكل هذه الأسباب التي ذكرت، فقد آلت حالة بعض أسرنا إلى نهاياتٍ لا تسرُّ صديقاً ولا تضرُّ عدواً، وكأننا لا نملك أفضل تراث فكري وحضاري وديني، ولم نتوارث عادات وتقاليد قائِمة على مكارِم الأخلاق والمروءة، لكن معظم الناس نبذوا كل هذه المواريث الطيبة الأصيلة في غمرة الانبهار نحو بريق الغزو الثقافي الغربي، في حين صدّر لنا الغربيون أسوأ عاداتهم وسلوكياتهم وتقاليدهم، فتلقفها ضعاف النفوس منّا دون الرجوع إلى قرآننا العظيم وسُنّةِ نبيّنا الكريم ومبادئ الإسلام السمحة، التي تدعو للطهارة والعِفّة والاستقامة، وبعد أن هجرنا تصفح دواوين الشعر العربي والكتب الأدبية القديمة، حيث أنَّ الشعراء والكتّاب هم ضمير الأمة، وكتب الآداب والأخبار ودواوين الشعر، إنما هي ثبت تاريخي للحضارة الثقافية والفكرية والعادات والتقاليد والسلوك السائِدَة، التي تُمارسها الأمة، لذا فهي خير من يعكس ويؤكِّدُ حضارة الأمة في عصر من العصور، وخير سلاح مقاومة، وتحصين ضد أمراض العادات البذيئة والثقافات الهابطة المستوردة المفروضة.

المشكلة موضوع الدراسة

لقد آلمني كما آلَمَ غيري حالُ أُسرِنا الراهنة، فوددتُ التعرف على حال أسرنا في السابق، لبيان الأفضل والأطيب والأحسن فتوجهتُ نحو فئة الشعراء والأُدباء لأنهم الأقدرُ تعبيراً وإيضاحاً، والأكثر رقةً في الأحاسيس والأشدُّ دقَّةً في المشاعر التي أنضجتها التجربة والمعاناة، كما أن الشاعر هو ابنُ الأسرة حيث يبدأ طفلاً مدلَّلاً فيها، ثم يصبح في موقع الابن وهو الحبيب الأثير عند والديه، ثم في موقع الأخ، وهو موقع الإعزاز والتعاضُد ومصدر القوة والردء والمتكأ، ثم يكون في موقع الزوج، الذي يتحلّى بصفات الود وشمائِل الرحمة والحب والتعاطُف، ثم يكون في موقع الأب، صاحب القلب الكبير الذي يحتوي على خزائِن من الحنان والعطف والرحمة والحب لأولاده، وبدأتُ أقلّبُ صفحات الدواوين وأتقصّى أخبار الأسرة بأعضائِها الأربعة في الكتب الأدبية، حتّى تَجمّع لديَّ الكثير من هذه النصوص التي تعبّر أجمل تعبير عن معاني الوفاء ومواقف الإخلاص والحب والتراحُم والودّ والتماسُك والترابُط والتسامُح والتآزر والتعاضُد، الذي كان قائِماً بين أفراد الأسرة من الاباء والأبناء والإخوان والأزواج تحت شعار قوله عليه السلام في معرض وصاياه مؤكداً على صلة الأرحام: «**صلة الرَّحم منماةٌ للعود ومَثراةٌ للمال ومنسأةٌ في الأجل**»[1]، وقوله: «**الرحمة لا تنزل على قاطع رحم**»[2]، ثم قوله عليه السلام: «**لا يرحم الله من لا يرحم الناس**»[3].

وقد حثّ سبحانه على التعاون بين المسلمين في قوله تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ**﴾ [المائدة: ٢] وقوله تعالى:

---

(١) رياض الصالحين: ص ١٣٢، صحيح البخاري: ج٥، ص٢٢٣٢.
منسأة في الأجل: أي طول العمر.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) صحيح البخاري: ج٦، ص٢٦٨٦.

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورىٰ: ٢٣] صدق الله العظيم وستظلُّ آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول الكريم مَعينَنا الذي لا ينضب للاستشهاد والاسترشاد والتوجيه بِما جاء في هذه الدراسة المتواضعة لتخاطب عقول وأفكار وضمائر أهلنا وأرباب أسرنا وأمهات أبنائنا وبناتنا في العصر الحاضر وتعريفهم بقيَم وعادات وتقاليد الأجداد والأسلاف. ابتغاء رضى الله سبحانه وتعالى ونوال ثوابه.

الهدف (الحل):

وقبل أن أنهي هذه الصفحات، أودّ أن أوضح الهدف والقصد من وضع هذه الدراسة، وألخّصها في بساطة وتواضع، حيث عزَّ عليَّ ما يجري في هذا الزمان الرديء الغابِر، وما آلَ إليه حال أفراد بعض الأُسَر، وما تواجهه من التباعُد والتنافُر، وخشيتي أن تنخرَ هذه السوسة في جسدِ الأُسرة وأفرادها فتقضي على ما تبقى من تماسُكِها وترابُطِها مستقبلاً، ويؤولُ حالها كما آلَت إليه حالُ الأسرة في الأمم الأوروبية والغربية، ويصبح الأب والأُم لا يملك أحدهما حق ردعِ الابنِ أو الابنة، كما لا يستطيع الزوج أن يُعيد الزوجة إلى طريق الصواب، والأخُ لا يقدر على توجيه النصح والإرشاد لأخيه، فيكون السقوط إلى الهاوية نهاية المطاف (لا سمح الله)، لذلك أردت إلقاء نقطة ضوء أمام أفراد أسرنا لتبصيرهم بحال أسرنا في العصور السابقة وما كانت عليه من الترابط والتراحم، يوم كان أجدادنا سادة الدنيا وعلماءها ومعلميها، فأسألُ الله أن يكون لهذا العمل تأثيره على رأي المطلع عليه، ويثير ذاكرته وحَميته إلى التمسُّك بروابط القربى والرحم، التي تؤدي إلى صيانة أسرته وحمايتها أكثر وأكثر إن كان أخاً أو زوجاً أو أباً أو ابناً، كما كان يُمارس الاباء والأجداد مسؤولياتهم في رعاية أسرهم وتربية أبنائِهم في ظل أخلاقٍ كريمةٍ فاضلة ومبادئ فرضها القرآن الكريم وسنَّتها السنّة النبوية الشريفة وتحدث عنها حكماء وشعراء العرب الذين أثبتوا في دواوينهم

وأمهات كتبهم الكثير من الرحمة والحب والترابط والتوادد والتوقير والتقدير للأسرة وأفرادها في جميع مواقعهم، وسعياً لتحقيق هذا الهدف (الحل) على أساس عقد المقارنة بين حالتي الأسرة في السابق والحاضر، فقد تم استقصاء الدراسات الحديثة، التي تتناول الحديث عن مكانة الأفراد التي تتكون منهم الأسرة أو من تفردت وتخصصَّت لبيان حال الأسرة في العصر الحاضر، فلم أوفق بالإطلاع على دراسة تعينني على بيان ما أسعى وأهدف إليه لأن الدراسات التي اطلعت عليها كانت تتناول الأسرة ضمن دراسة عامة أو بشكل جزئي، أو في إطار الحياة الاجتماعية بشكل عام مما حصر استعانتي بمثل هذه الدراسات بالنذر القليل.

وفي زحمةِ النصوص المتوافرة من العصر الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي، فاخترت منها الذي حسبته الأطرف والأجود، وأنه يؤدي الغرض الذي ابتغيتُه من وضع هذه الصفحات، لدعوة راعي الأسرة الحالية في عصرنا هذا وأفرادها للتكافل والتضامن والعودة إلى التمسُّك بالأصول والعادات الأصيلة، ومكارِمِ الأخلاق التي تفرض رحمة الكبير للصغير واحترام الصغير للكبير، وفق السنّة التي سنتها العقيدة الإيمانية والشريعة الإسلامية، وتحصين أولادنا بها لوقايتهم من خطر الانزلاق والانحراف إلى اللاأخلاقية والإباحية، وقد جاء تصنيف الدراسة حسب مواقع الإنسان الأربعة في الأسرة على النحو التالي:

- تمهيد.
- الأسرة وأثرها في حياة أبنائِها.
- مكانة الآباء في الأسرة.
- مكانة الأمهات في الأسرة.
- مكانة الأطفال في الأسرة.

- مكانة الأبناء في الأسرة.
- مكانة البنات في الأسرة.
- مكانة الإخوان في الأسرة.
- مكانة الأزواج في الأسرة.

ومن الله أرجو التوفيق، ومن القارئ الرضى والتفاعُل، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، اللهُمَّ علِّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وأنتَ وليُّنا ونعمَ النصير.

عمان

١١/ ذي القعدة/ ١٤٢٥هـ

الموافق ١/ ١/ ٢٠٠٥م

الدكتور

محمد عبد القادر غنيم

الأسرة وأثرها في حياة أبنائِها

للأسرة المتماسكة المترابطة المتراحمة أثر بالغٌ في حياة أبنائِها الذين يجدون في أحضانِها الحماية والأمان والطمأنينة، ويستمدّونَ من الانتماء إليها الثقة بالنفس والشعور بالقوة والعزم، كما أنَّ الأسرة تشحنُ أفرادها بطاقةٍ هائلة من الشجاعة والجرأة والإقدام، وتكسبهم احترام الناس وتقدير الأُسَر الأخرى من حولهم، بتصرفّهم الأخلاقي القائِم على الكرم والمروءة، فبالقدر الذي يكون أفراد الأسرة الكبيرة متماسكين مترابطين متعاضدين، يكون قدر ما يكنه الناس لهم من الحب ونظرة الاحترام والتقدير، أو الكره والاحتقار والازدراء.

وهذا سيدنا علي - كرم الله وجهه - يعطينا درساً في كيفية المعاملة بين أفراد الأسرة فيقول: «**أكرِم عشيرتك فإنهم جناحك الذي به تطير، وبهم تصول وتجول، وهم العدّة عند الشدّة، أكرِم كريمهم وعُد سقيمهم وأشركهم في أمورك ويسِّر عن مُعسِرِهم**»[1] وقيل أيضاً: «**حق الأقارب إعظام الأصغر للأكبر وحنوّ الأكبر على الأصغر**»[2]. قال عليه السلام: «**حق كبير الأخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده**» وقال عليه السلام أيضاً: «**ليس منّا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا**» حديث صحيح رواه أبو داود والترمذي.

وقال الشاعر[3]:

وإذا رُزقتَ من النوافل ثروةٌ ... فامنَح عشيرتك الأدنى قَيضِها[4]

واعلم بأنّك لن تُسوَّدَ فيهمو ... حتى ترى دمث الخلائق سَهْلَها

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف: ج٢/ ١٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المستطرف في كل فن مستظرف: ج٢ ص١٣.

(٤) القيض: المتاع.

قال سبحانه وتعالى في القرآن الكريم على لسان قوم شعيب عليه السلام في سورة هود: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١] صدق الله العظيم.

إذاً، فإن شعيباً ضعيف وفقير، لكنه ينتمي إلى قبيلة وأسرة ورهط، يهابه الجميع، فأمن امتداد يد السوء إليه، لأن رهط شعيب يشكّل له حماية ومظلّة، وهم طبعاً لن يتركوه وحيداً إن تعرّض لمكروه بل سينصرونه ويقفون إلى جانبه في حالة أن اعتدى أحد عليه، يهبوا للدفاع عن ابن أسرتهم وقبيلتهم، يمنعونه من الضيم والإهانة، لأن إهانته هي إهانة لهم جميعاً.

ومن هذا المنطلق ركّز الرسول عليه السلام في سنته، على صلة الرحم في ما بين الأسرة الصغيرة والأسرة الكبيرة (القبيلة والمجتمع المسلم بأسره) نبدأ بالوالدين حيث قال عليه السلام: «**تَعِسَ من أدرك أحد أبويه أو كلاهما ولم يدخل بهما الجنة**»[١] توجيه واضح وإرشاد مؤكّد لشد أواصر الرابطة الأسرية ثم قال عليه السلام: «**لا يدخل الجنة قاطع رحم**»[٢] ثم قال «**أعجل الثواب صلة الرحم**»[٣] وفي رواية للبخاري أن الله سبحانه قال في الحديث القدسي: «**خلقتُ الرَّحم وشققت لها اسماً من أسمائي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعتُه**»[٤] وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله قال: «**من أحبَّ أن يُبسط له في الرزق وينسأ له في أثره فليصب رحمه**»[٥] ومعنى «**يُنسأ له في أثره**» أي يؤخر له في أجله وعمره. متفق عليه.

---

(١) رياض الصالحين: ص١٣٢، صحيح مسلم: ج٨، ص٤٩٤.

(٢) رياض الصالحين: ص١٣٢، صحيح مسلم: ج٨، ص٥٠٤.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) صحيح مسلم: ج٨، ص٥٠٥.

(٥) المصدر نفسه.

المعروف أن الأسرة الصغيرة هي إحدى خلايا المجتمع الكبير أو القبيلة أو العشيرة، لذا، فإن القبيلة التي تود كسب احترام الأسر الأخرى، وبإطلالة على سيرة قبائلنا منذ عصر ما قبل الإسلام، نرى أن القبيلة كانت تلزم أبناءها على التصرف الأخلاقي مع أفراد أسرهم أولاً ثم مع أفراد الأسر الأخرى، ولا تتوانى الأسرة أو القبيلة بمعاقبة الابن وفق ما قام به من فعل أو قول مشين معيب أو مخجل، إذ سرعان ما يتم إصدار الحكم عليه، وربما أنها تبرأ منه، أو تطرده من ديارها أو تخلعه وترفع الحماية عنه، وقد تبيح دمه إذا كان ما اقترفه من فعل مخل بالشرف أو يعرض سمعة أسرته وقبيلته للازدراء، مقدمة بذلك مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد، وعدم ترك الفرد يسيء إلى الجميع.

لقد حفظت لنا كتب الأدب العربي، شعراً ونثراً الكثير من هذه الأخبار، التي عكست مجمل الحياة الأسرية، وما كانت عليه الأسرة العربية، إذ كان لها أثر في المجتمع العربي آنذاك، والأدب العربي هو ديوان العرب الذي حفظ أخبارهم وأحاديثهم وأيامهم وسجل حياتهم الاجتماعية والسياسية. لذا، سوف نقلّب صفحاته لنأخذ منه الجديد والطريف من أخبار الأسر متمثلة في أفرادها وما تأثرت به أو أثرت في غيرها، وسنجد في هذه الأخبار ما يدعم ما رمينا إليه من أخبار الأسر والمحافظة على ترابطها وسمعتها، وأخلاق وسلوكيات أبنائها منذ أقدم العصور، فالأثر الموروث ذو قيم وعادات مما جعل الإنسان العربي المسلم في هذا العصر أن يفتخر بها ويعتزّ، حيث ظلّت سائدة إلى وقت قريب، وهي المدد والعون والقدوة والعبرة والعِظَة ومواصلة التعاطف والتوادّ في عصرنا الحاضر، الذي تتعرض فيه مجتمعاتنا وأسرنا إلى الغزو الغربي، الهادف إلى تفكيك الترابُط الموروث القائِم في أُسرِنا، وخلخلة قيمنا الأخلاقية، التي نعتزّ بها كما اعتزّ بها أجدادنا وكانت لهم عوناً على الترابُط والتعاضُد والتقارب والتراحُم.

لقد تغنّى الشعراء بأفراد من الأبناء الذين بنوا مجداً لأسرهم وقبائلهم، وبالتالي أكسبوها مجداً وحمداً وسؤدداً وشرفاً لم يكن موجوداً قبلهم، وأعظم مثلٍ لذلك، هو سيدنا محمد ﷺ. الذي يقول فيه الشاعر ابن الرومي [1]:

يسمو الرجال بآباءٍ وآونةٍ   يسمو الرجال بأبناءٍ و تزدانُ
وكم أبٍ قد علا بابنٍ ذُرى شرفٍ   كما علَت برسول الله عدنانُ

والشاعر العربي الفحل (المتنبي) المتحدر من أسرة فقيرة مغمورة جداً، فإنه يقول مفتخراً بنفسه[2]:

لا بقومي شَرُفتُ بل شَرُفوا بي   و بنفسي فَخَرتُ لا بجدودي

وكذلك يخبرنا الشاعر الفارس عامر بن الطفيل، أن ما اكتسبه من شرف ومجد وسمعة طيبة بين الناس، إنما هي من صنع نفسه هو، لم يرثها عن قومه أو عن جدوده وراثة، فيقول[3]:

وإنّي وإن كنتُ ابن فارس عامر   وفي السرِّ منها والصميم المهذَّبِ
فما سوَّدتني عامرٌ من وراثةٍ   أبى الله أن أسمو بأمٍّ و لا أبِ

وبالشعور نفسه والإحساس، يخبرنا الشاعر ابن جبلة من قبيلة عجل عن كيفية وصوله إلى مواقع السيادة والرئاسة فيقول[4]:

فما سودت عجلاً مآثر قومه   ولكن به سادَت على غيرها عجلُ

وأنشد الشاعر الحسن من قبيلة بجيلة مستذكراً الشاعر جريراً، الذي رفع رأس أسرته وقبيلته وجلب لها السمعة والذكر بين القبائل، ناعياً على القبيلة إياها تقاعسها عما فعله شاعرها بمفرده[5]:

---

(١) ديوان ابن الرومي: ص٦٣٠.
(٢) ديوان المتنبي: ص٢١.
(٣) محاضرات الأدباء: ج٢، ص٢٣٤.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي: ص ٣٧٥.

لــولا جــريــر هَلَكَــتْ بجيلــة نِعْــمَ الفَتــى و بِئْسَــت القبيلــة

أما الشاعر الكبير زهير بن أبي سلمى، فإنه يؤكد أن الابن الذي ينال شرفاً ويؤسس مجداً لقبيلته وأسرته، إنما يكون مؤهلاً لذلك بشيء من نواة وصفات آبائه وجدوده، إذ هي التي تعينه وتدفعه للإقدام وتحقيق السيادة وممارسة القيادة، حيث يعبر في هذا السياق عن رأيه مدعماً إياه بالحجة والبرهان[1]:

ومــا يفعلــوا مــن فعــل صــدقٍ فـإنمـا تـوارثـه آبـاء آبـاءهـم قَبْـلُ
وهــل ينبــتُ الخطــي إلاّ وشيجــه وتغــرس إلاّ فــي منــابتهــا النَّخْــلُ

وقال عبد الله بن معاوية بن جعفر[2]:

لسنــا وإن أحســابُنــا كــرُمَــت يــومــاً علــى الأحســابِ نتّكِــلُ
نبنــي كمــا كــانــت أوائلنــا تبنــي ونفعــل مثــل مــا فَعَلــوا

وكما أنّ هناك أبناءً قد أحسنوا إلى أنفسهم وأسرهم وقبائلهم، فإنَّ هناك أبناءً قد أساءوا إلى أسرهم وقبائلهم، فما كان ذلك بإرادتهم المطلقة، بل كانت هناك ظروف وأسباب اجتماعية أرغمتهم على موقف الإساءة، كما سنرى في الصفحات التالية.

وإنصافاً للأبناء الذين أساءوا لأسرهم ولقبائلهم وتم طردهم من أسرهم أو خلعهم من قبائلهم، فيمكن تصنيفهم إلى ثلاثة أصناف، أو فئات أو مجموعات، إذا ما أردنا دراسة الأسباب التي أجبرتهم على ذلك بتجرد وحيادية، حتى لا نضع الجميع في خانة واحدة وذلك على النحو التالي:

---

(١) ديوان زهير: ص٢١٩.

(٢) المصدر نفسه.

الفئة الأولى (الخلعاء): هم الذين تمَّ طرهم وخلعهم من أسرهم وقبائلهم، اتّقاءً لشرهم وكثرة جرائرهم عليها وسوء أفعالهم، التي كثيراً ما تسبب للأسرة والقبيلة الحرج، وتعرضها لغضب وانتقام الأسر والقبائل الأخرى، لذلك فسرعان ما تضحي الأسرة أو القبيلة بهذا الفرد سيء التصرف في سبيل إنقاذ سمعة جميع أفراد القبيلة، ورفع الحرج عنهم طلباً لسلامتهم وحمايتهم وتقديم المصلحة الجماعية على المصلحة الفردية، وممن رفعت القبيلة عنهم غطاء حمايتها وخلعتهم منها خلعاً وطردتهم وكانوا فرساناً[1]: حاجز الأزدي، وقيس بن الحدادية، وأبي الطمحان القيسي[2] وغيرهم كثير، طردوا من الإقامة مع أسرهم وأصبحوا بلا حماية قبلية أو أسرية، مما اضطرّ بعضهم إلى الالتجاء إلى إحدى القبائل يدخلون في جوارها، يعيشون في أطرافها وعلى هامشها، وفي هذه الحالة يتجرعون كؤوس الذل والمهانة التي يلاقونها في معاملات حياتهم اليومية، أو أن ينضم أحدهم إلى مجموعات قاطعي الطرق والسلب والنهب التي كانت منتشرة، وجلّهم من الخلعاء المطرودين أمثالهم، المنتشرين في كافة طرق المواصلات يتعرضون للتجار والحجاج وغيرهم من المسافرين لسلبهم، أو الغزو على القبائل لتأمين متطلبات حياتهم.

إنَّ هذه الإجراءات من الخلع والطرد إنما تكون قصاصاً للحد من طيش وسوء سلوك الأبناء، وتطبيق مثل هذه العقوبة فيها من دوافع الردع وكبح

---

(١) الشعراء الصعاليك في الشعر الجاهلي: ص٥٢.

(٢) أبو الطمحان: واسمه حنظلة بن الشرقي أحد بني الفَيْن من قضاعة، أدرك الإسلام وأسلم في حياة النبي عليه السلام، وحسن إسلامه فصار صحابياً، وكان شجاعاً، قُتِل وهو يرتجز:

أنا الذي تخلعه مواليه وكلهم بعد الصفا قاليه

ومن شعره نعرف أنه كان غاضب وعاتب على قومه لخلعه فكان يدعو عليهم ويمدح آل عمرو بن خالد الذين آووه وحموه بعد أن خلعه قومه. الشعراء الصعاليك ص١٦٢. ديوان الحماسة ص٨٣.

الجماح وتقويم السلوك ما يجعل الأفراد يحسبون ألف حساب قبل الإقدام على أي عمل فيه إساءة أو اعتداء على الاخرين، قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩] صدق الله العظيم.

الفئة الثانية (أغربة العرب): وينتمي أفراد هذه المجموعة إلى أبناء أسر وقبائل أصيلة، لكنهم انحدروا من أمهات حبشيات، فخرجوا إلى الدنيا بلون أسود، مع أن آباءهم ينتمون إلى أسر وقبائل معروفة ومشهورة، فنبذهم آباؤهم ولم يعترفوا بأبوتهم، اتّقاء للعار الذي يلحق بهم لسواد بشرة أبنائهم، وقد أطلقوا عليهم لقب (أغربَةِ العَرَب) نسبة لسواد لون الغراب، ويأتي على رأس هؤلاء الأغربة، الشاعر الفارس والبطل المشهور عنترة بن شداد العبسي، لكن الظروف ساعدته بانتزاع اعتراف أبوّته من أبيه شدّاد، في وقتٍ كانت القبيلة تتعرض للغزو والحاجة ماسَّة لشجاعته وفروسيته، فقال له والده شدّاد قولته المشهورة: (كُرّ وأنت حُرّ) وكان عمه قد رفض تزويجه ابنته عبلة لسواده وعدم الاعتراف ببنوته، رغم أنهما قد تبادلا الحب بينهما، ومما قاله عنترة في عبلة ابنة عمه[1]:

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ نواهِل ... منّي وبيضُ الهِندِ تقطُرُ من دمي

فوددتُ تقبيلَ السيوفِ لأنّها ... لَمَعَت كبارقِ ثغركِ المتبسِّمِ

ومن هؤلاء الأغربة الذين عُدّوا عاراً على آبائهم فنقموا على قبائلهم وآبائهم لنبذهم اياهم، لأسباب لم يقترفوها وليس لهم فيها يد، بل إنهم يحمّلون آباءهم مسئولية ما جنوا عليهم وأنجبوهم من حبشيات سود، فهاموا على وجوههم يحملون في نفوسهم وقلوبهم الحقد والكراهية والنقمة على المجتمع، الذي ظلمهم ولم ينصفهم، لكنهم ظلوا يحملون في دواخل نفوسهم نُبلاً وشهامةً وكرامةً وسمو أخلاقٍ موروثة عن هذه الأسر العريقة،

---

(١) شرح المعلّقات للزوزني: من معلقة عنترة بن شداد، ص١٢٨.

التي ينتمون إليها، واكتسبوا الشجاعة والفروسية والمروءة والخبرة من المعاناة ومكابدة الحياة، فكانوا فعلاً يعترضون القوافل التجارية فينهبون ويسلبون ويغزون القبائل، ولكن ليس لمجرّد العبث أو اللؤم أو سوء الخلق أو حباً في السلب وإيذاء الناس، فقد كانوا يوزعون ما يكسبونه بكل فخر واعتزاز وكرامة على الفقراء من الأسر في قبائلهم والقبائل الأخرى، وربما يوزعون كل ما امتلكوا من الأموال وباتوا هم على الجوع، يتجرعون الحسرة والألم يحزّ في نفوسهم وهم يرددون قول الشاعر العرجي حين ينعي على قومه ظلمهم له بنسيانهم إياه وبذلك خسروا فتىً شجاعاً وفارساً مقداماً[1]:

أضاعوني وأي فتىً أضاعوا ليومِ كريهةٍ وسداد ثغرِ

ومن أشهر الأغربة (تأبّط شراً) وهذا لقبه، أما اسمه الصريح فهو (ثابت بن جابر بن سفيان) من قيس عيلان، وأمه حبشية اسمها (أميمة) تزوّجت فيما بعد أبا خراش الهذلي، الصعلوك المشهور، فأخذ عنه تأبّط شراً الكثير من الشجاعة والفروسية والطباع النبيلة والصفات الحميدة، ومنهم أيضاً (الشنفرى) هذا لقبه لغلظ شفتيه ولسواده المتحدر من أمه الحبشية، فهو من قبيلة الأزد اليمنية وقيل أن (الشنفرى) اسمه وليس لقبه، وهو ابنُ أخت تأبّط شراً، ومنهم كذلك عمرو بن براق وكان زميلاً ورفيقاً لتأبّط شراً، وقد تعرض يوماً معه لخطر الأسر أو القتل، لكنهم نجوا بِعَدْوِهِمْ ورَكْضِهِم وسرعة جَرْيِهِمْ الذي اشتهروا به على سائر العرب، وفي ذلك يقول تأبط شراً[2]:

ليلةَ صاحوا وأغروا بي سراعهم بالعَيْكَتَيْنِ لدى معدَ ابن برّاقِ[3]

---

(١) ديوان العرجي: ص٤٨٥.

(٢) المفضليات: ص ٢٨، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي: ص٢١١.

(٣) العَيكتين: اسم موضع.

حتّى نجوت ولَمَّا ينزعوا سَلَبي بواله من قَبيضِ الشدّ غَيْداقِ[1]
سباق غايات مجدٍ في عشيرته مرجّع الصوت هداً بين أرفاقِ

ومن هؤلاء الأغربة (السليك بن السليكة) الذي يُعَدُّ من أعدى العدائين العرب هو وزميله تأبّط شراً، وقد قيل في الأمثال (أعدى من السليك) و(أعدى من الشنفرى) أما تأبط شراً فقيل عنه إنه (أعدى ذي رِجْلَيْن وذي ساقين وذي عينين) وكان إذا جاع ينظر إلى قطيع الظباء ويرى أسمنها فيعدو خلفها حتى يمسكها بيديه فيذبحها ويشويها ويأكلها)[2].

وللشنفرى قصائد في الفخر وغيره من المواضيع الشعرية، ونحن هنا نستمع في قصيدته التائية التي يذكر فيها سبب تمرده على قبيلته التي باعته ونسيته ولم تسأل عنه، فنقم عليهم وقتل منهم ويقول بذلك[3]:

جَزَيْنا سلامان بن مفرج قرضها بما قدَّمت أيديهم وأزلَّتِ
وهُنَيء بي قوم وما إن هنأتهم وأصبحتُ في قومٍ وليسوا بِمنبتِ[4]
وإني لحلوٌ إن أُريدَت حلاوَتي ومُرٌ إذا نفس العزوفِ استمرَّتِ[5]

إنه ينعى على قومه أنهم لم ينتفعوا ببأسه وفروسيته، لذلك فإنه يترصدهم للفتك بهم لظلمهم إياه وقد ولد بينهم فنبذوه لسواده، حتى باعوه إلى قبيلة أخرى عبداً، ليكتشف ذلك مؤخراً، فيخرج عن طاعة الجميع ويلتحق بالجماعات التي يشبه حالهم حاله، للانتقام من جميع الذين أساءوا إليه.

الفئة أو المجموعة الثالثة (الصعاليك): والصعاليك لقب أطلق على فئة من فرسان العرب، تخصصوا في غزو أصحابِ الأموال من التجار وسلبها

---

(١) الغيداق: الواسع الكبير.
(٢) المفضليات: ص١١٢.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المنبت: الأصل ومسقط الرأس.
(٥) العزوف: المنصرف عن الشيء غير الراغب فيه.

وتوزيعها على الفقراء والمحتاجين، نبلاً منهم ورحمةً بهؤلاء الناس، ومن هؤلاء الصعاليك الذين اتخذوا الصعلكة حرفةً وطريقاً وأسلوباً، لإعلان نقمتهم على مجتمعاتهم وقبائلهم وأسرهم لظلمهم إياهم، فإنهم ليسوا بخلعاء، وليسوا بأبناء حبشيات من ذوي اللون الأسود، ولم يلحق بهم عار أو فعلوا أفعالاً تستحق طردهم أو خلعهم، لكنهم اختاروا الصعلكة اختياراً، انطلاقاً مما في نفوسهم من نقمةٍ نتجت عن إهمال آبائهم لهم وقسوة أسرهم وأقوامهم عليهم، ومن الظلم الاجتماعي والقهر الذي شعروا به، فكانوا يعبرون عن هذه النقمة والقهر بالخروج للغزو، والتعرض إلى أموال الأغنياء والتجار فيأخذون منها ما استطاعوا الحصول عليه، ويعطوها للفقراء من أسرهم وقبائلهم وأسر وقبائل أخرى غيرهم، ويأتي على رأس هذه الفئة الشاعر الفارس (عروة بن الورد العبسي) الذي حقد على أبيه لسوء اختيار أمه، فشعر بالعار لوضاعة أخواله ونسبه من جهة أمه، حيث أنها من قبيلة (نهد) ذات السمعة السيئة بين القبائل التي يقول فيها هو نفسه[1]:

وما بي من عارٍ إخالُ علمتُه سوى أنَّ أخوالي إذا نُسبوا (نهد)

لقد كان أبوه فارساً في أسرته وقبيلته، فورث عنه الشجاعة والفروسية وقوة البأس وشدة المراس، فكان عروة نبيلاً كريماً شهماً ذا مروءة ونجدة وسمو أخلاق، التحق مع الصعاليك ليقطع طريق التجار الأغنياء فيأخذ من أموالهم ويوزعها على فقراء قبيلته والقبائل الأخرى. فبذلك العمل يعبر عن نفس كريمة وأخلاق سامية أصيلة، إذ أنه لم يَغْزُ من أجل الغزو والسلب والنهب كالشنفرى وتأبط شراً وغيرهم، وإنما لمساعدة المستضعفين الفقراء، وبذلك يكونون قد اشتركوا في حقدهم ونقمتهم على مجتمعاتهم للظلم الذي أوقعه بهم كل من وجهة نظره، والذي يسجل لعروة بن الورد

---

(١) ديوان عروة بن الورد: ص٢٦.

يُضاف إلى رصيده من النبل والأخلاق والشهامة، أنه لم يكن يَغيرُ على أموال رجل كريم، معروف عنه مساعدة الناس الفقراء، ويبذل من أمواله للمحتاجين، بل كان يغزو المعروفين بالبخل ولا يراعون محتاجي قبائلهم وأسرهم، وكان يحتفظ بنصيب رجاله الذين لم يشاركوه الغزو بسبب عذر خارج عن إرادتهم، وذلك تقديراً ووفاءً لإخلاصهم له ولو تأخروا ولم يشاركوه الغزو بسبب المرض أو الضعف أو غير ذلك.

وبهذه الخصال الحميدة التي تنم عن نبل وشرف وشهامة وأصالة وحكمة وتقدير للزمالة والصداقة بوفاء، فقد ذكره معاوية بن أبي سفيان وقال[1]: (لو كان لعروة ولد لأحببت أن أتزوج منهم) أما عبد الملك بن مروان فكان يقول[2]: (من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد). فلنستمع إلى بعض ما قاله عروة بن الورد منشداً في إحدى قصائِده العديدة يقارن بين نفسه ومن عيَّره بنحول جسمه[3]:

إني امرؤ عافى إنائي شركة ... وأنت امرؤٌ عافى إناؤكَ واحدُ
أتهزأ مني إن سَمِنتَ وأن ترى ... بجسمي شحوبَ المعد والمعد جاهدُ
أفرق جسمي في جسومٍ كثيرة ... وأحسو قداح الماء والماءُ باردُ

إنه يردُّ على مَن عيَّرَه النحافة والنحول أنه لا يأكل وحده كما يفعل هو، لكنه يأكل مع ضيفان يشاركونه طعامه، لذلك كان هو نحيفاً وصاحبه سميناً من كثرة الأكل، ثم إنه يقسم طعامه بين الفقراء (أفرق جسمي في جسوم كثيرة) وبهذه نراه ينعي على صاحبه طبع حب نفسه وأكله الطعام وحده دون شركاء له فيه، وعروة هو الذي يقول أيضاً معرفاً الصعلكة الحقيقية والهدف منها[4]:

---

(١) ديوان عروة بن الورد: ص٦٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٩.

(٣) تاريخ الأدب العربي: العصر الجاهلي: ص٣٧٥، ديوان عروة بن الورد: ص٧.

(٤) ديوان عروة: ص٨.

ولله صعلـــوكٌ صحيفـــةُ وجهـــهِ كضـوءِ شهـابِ القـابـسِ المتنـورّ
مُطِـلاً علـى أعـدائـه يـزجـرونـه بسـاحتهـم زجـر المنيـح المشهّـر
وإن بَعُـدوا لا يـأمنـون اقتـرابـه تشـوق أهـل الغـائـب المنتظـر
فـذلـك إن يلـق المنيّـة يلقهـا حميداً وإن يستغن يوماً فأجدر

هذا هو الصعلوك المثالي الذي يستحقّ في نظره أن يُقتفى أثره ويُسلك طريقه قولاً وفعلاً.

ومن هؤلاء الصعاليك أبناء الأسرة الكبيرة أبو خراش الهذلي، فهو أيضاً يحمل نفساً كبيرةً تفيض كرامةً ونبلاً وأخلاقاً، وفيها الكثير من الترفع والأنفة، فقد كان يسير على طريق الصعاليك المحترفين نفسها، ويكسب بطريقتهم ويتبع أسلوب الصعاليك النبلاء، فيغزو البخلاء والأشحّاء على كثرة أموالهم، فكان يعترض أموالهم فيأخذ منهم ويفرق ما يحصل عليه على المحتاجين والمعوزين والمستضعفين من أفراد أسرته وقبيلته، وكثيراً ما كان يبيت على الطوى مكتفياً بشرب الماء كما يخبرنا هو بنفسه[1]:

وإني لأثوي الجوعَ حتَّى يَملّني فيذهب ولن تدنس ثيابي ولا جرمي
وأغتبـقُ المـاء القـراح فـأنتهـي إذا الـزاد أمسـى للمـزلـج ذا طعـم
أردُّ شجـاع البطـن قـد تعلّمتـه وأوثر غيري من عيالك بالطعم

وهكذا فإنه يؤثر غيره من أصحاب العيال المحتاجين في أسرته وقبيلته، ويكتفي هو بشرب جرعة من الماء القراح، ولا يمرُّ طويل وقتٍ حتى تذهب عنه آلام الجوع وهو يحسُّ بالراحة ويشعر بالسعادة لهذا الفعل النبيل بالشعور مع الاخرين وإدخال السعادة على عيالهم.

وهكذا فإن الانتماء إلى الأسرة والقبيلة، تعمر قلب الفرد وتشعره بذاته وقوته والثقة بنفسه، فعلى الأبناء الحرص على العيش في ظلّها وتحت

---

(١) الأغاني ٣/ ٨٧ الأصمعيات ص٥٢. الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي: ص٢١١.

حمايتها، لتمنحهم بدورها الشجاعة والإقدام والقوة والحماية بما يضمن الوحدة لهذه الأسر، والترابُط والتماسُك والحفاظ على القيم ومكارم الأخلاق بين أبنائها، حيث تعود عليهم بالخير والفائدة، واكتساب الاحترام والتقدير والهيبة، بحرصها وحرص جميع الأفراد على الاعتصام بالعادات والتقاليد القائمة على المحبة والاحترام والتقدير والتحلي بمكارم الأخلاق، التي تحصِّن الأفراد وتقيهم من الوقوع تحت التأثيرات الخارجية والانحرافات، التي تؤدّي إلى السقوط في هاوية الانحلال الخلقي والتفكك الأُسري لا سمح الله، وهنا تبرز مسئولية راعي الأسرة أو القبيلة لأخذه بيد الأبناء إلى طريق السلامة والحماية.

ومعلوم إن أقطاب الأسرة وعمادها هم: الأب والأم والأبناء والأخوان والأزواج، وبفطرة الله سبحانه تكونت لديهم رابطة قوية من القرابة والتراحم والحب والإعزاز فيما بينهم تغلَّبت على ما عداهم من الأقربين، فقد ضرب الله مَثَلاً في القرآن عن هول يوم الحساب وما يلاقيه الإنسان جزاء عمله وأمله بفوز في الجنة غير آبه بغيره حتى لو كان من أحب الناس إليه وأقواهم رابطة وقربى، فقال تعالى في القرآن الكريم: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧] هؤلاء فعلاً هم أفراد الأسرة وأقرب الناس وأحبهم لبعض وأولاهم بالرحمة من غيرهم من ذوي القربى، لذلك سنلقي في الصفحات التالية نقطة ضوء على مكانة كل منهم وتأثيره في أسرته من خلال بعض الايات الكريمة، والأحاديث الشريفة، وما تحدث به الشعراء العرب باعتبارهم ضمائر الأمة وحكمائها من توجيه وإرشاد، لعلّ كل ذلك يجد آذاناً صاغية عند القارئ فيتعظ ويتفاعل وينتبه إلى مسئوليته في الحفاظ على أسرته وأهله وأبنائه وكافة من هو مسئول عنهم.

* * *

مكانة الآباء في الأسرة

الأب عماد الأسرة وراعيها، يتولى زمام إدارتها ومسؤولية توجيهها وإرشادها، فهو كربّان السفينة الماهر الذي يقودها إلى شاطئ السلامة.

الأب يسعى ويكدّ في طلب الرزق، ويسهر ويعرق من أجل راحة أبنائه ورعايتهم وتوفير العيش الكريم لهم وتأمين مستقبلهم، ويقوم بالتوجيه والإرشاد الذي يصونهم من الانحراف ويحميهم من الوقوع في الخطأ، ويدفع عنهم كلما ألمّ بهم أي ضرر أو حاق بهم أي سوء، وعلى هذه الأسس والركائز قامت مكانة الآباء، واستحقوا تقدير وتوقير كل أفراد الأسرة، وتكليف القرآن الكريم للأبناء برحمة الوالدين والإحسان إليهما وبرّهما وطاعتهما بالمعروف إلاّ في معصية، والدّعاء لهما بالخير بقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾.

ومن الصور التي تبرز مكانة الآباء ورفعة منزلتهم عند أبنائهم، وتؤكد حقوق طاعة الأبناء في أسمى درجاتها وأقصى ما يتخيل أن يطلبه أب من ابنه، وذلك حين طلب سيدنا إبراهيم من سيدنا إسماعيل أن يذبحه بناء على حلم رآه في المنام (وحلم الأنبياء يقينية) فما كان من الابن إلا أن يطيع أباه راضياً، ولنقرأ أحداث هذه القصة المثيرة في القرآن الكريم، حيث يقول تعالى على لسان إبراهيم: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] وهكذا تجلّت مكانة الأب إبراهيم من خلال طاعة الابن إسماعيل، والصدق في تضحيته، فاستحق أن يفتديه الله بذبح عظيم تقديراً لهذا الموقف الإنساني بين الأب والابن، وقد سبق سيدنا إبراهيم أن وقف موقفاً من أبيه (آزر)، حينما رفض دعوة ولده إبراهيم للإيمان، فظلَّ يحاول، كابن، هداية أبيه بلا

كلل أو ملل، وذلك لما تفرضه منزلة الأب عند الابن، فقد قال تعالى على لسانه عليه السلام حينما رأى إشراك قومه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤] ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] ورغم الفرق بين الإيمان والإشراك إلاّ أنَّ سيدنا إبراهيم قد وعد والده أن يستغفر له الله، كما جاء في القرآن الكريم، ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤] هذا هو إبراهيم الابن يعزّ عليه إشراكُ أبيه فيحاول هدايته إلى الإيمان بالله بشتّى أنواع الإقناع والهداية فيقول تعالى على لسانه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٢-٤٧] محاولة جادَّة من الابن لهداية والده، رحمةً منه ورأفةً وإحساناً له تتناسب مع ما له من مكانة وإعزاز واحترام وتقدير وتوقير يؤكد ذلك تكرار مناداة إبراهيم والده، وتوسلاته إليه، ولمّا لم يُطعه هجره بناءً على طلبه، وهاجرَ إبراهيمُ عن أبيه وأهله وقومه في سبيل الله، الذي مكّن له ورزقه الأموال والبنين والنبوّة، فقال تعالى ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩] صدق الله العظيم.

ورسول كريم آخر حاول أن يُمارِسَ على ابنه سلطته الأبوية، المنبثقة من مكانة الاباء ومنزلتهم عند أبنائهم في محاولة لهدايته للإيمان بالله وإنقاذه من الغرق في الطوفان المرتقب الذي سينزل بقومه، إنه سيّدنا نوح عليه السلام الذي عزَّ عليه أن يكون ولده في صفّ المشركين والمغرقين، فيحاول إنقاذه بإقناعه للركوب في السفينة، شأنه شأن كل أب يحاول إنقاذ ابنه من الغرق والعذاب في الآخرة، فيقول تعالى على لسان نوح عليه السلام

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾.

رُغم أن ابنه لم يطعه ورفض طلب والده غير مقدِّرٍ مكانته ومنزلته وحقَّه عليه، نجد سيدنا نوح الأب يتوجه إلى الله يطلب له الرحمة، فيقول تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٥-٤٦].

إن منزلة الآباء محفوظة ومنصوص عليها في القرآن الكريم وتأثير ذلك واضح على الأسرة إنْ كان سلباً أو إيجاباً كما رأينا في موقف الأسرتين الكريمتين (أسرة سيدنا إبراهيم وأسرة سيدنا نوح) عليهما السلام، وكما أن الله تعالى قد حثَّ الأبناء على توقير الاباء وتقدير مكانتهم ورد جميلهم الذي قدموه لهم في صغرهم ، فإنَّ السنة الشريفة ركَّزت أيضاً على بيان فضائل الآباء ووجوب رحمتهم والإحسان إليهم بطاعتهم وتوقيرهم وتقديرهم، ومن أقواله عليه السلام في بيان مكانة الأب قوله: «**لا ترغبوا عن آبائِكم، ومن رغب عن أبيه فقد كفر**»[1]. كما قال عليه السلام: «**رَغِمَ أنفه من أدرك أباه أو أمه ولم يدخل بهما الجنة**»[2] وقال عليه السلام: «**الأب أوسط أبواب الجنة فاحفظ ذلك الباب**» وقال: «**أنت ومالك لأبيك**» «**أولادكم كسبكم فكلوا من أموالهم**».

إنَّ هذه الأحاديث الشريفة تحثّ كما هو واضح على بيان فضل الاباء على الأبناء، لما قدّموه لهم حينما كانوا بحاجة للعناية والرعاية، فلم يبخلوا عليهم، وما جزاءُ الإحسان إلاّ الإحسان، وردُّ الجميل والاعتراف بالفضل لأصحابه من علامات الوفاء، قال عليه السلام: «**الأبناء يُجبنون ويُبخلون**» أي أن الأب يبخل على نفسه ليعطي أولاده، وقد يقنع بالقليل فيقعد عن

---

(١) صحيح البخاري: ج٦، ص٢٤٨٥.

(٢) صحيح مسلم: ج٨، ص٤٩٣.

الابتعاد عن أولاده للسعي وراء الأفضل، وقد يجبن أمام رئيس عمله محافظة على مواصلة رزقه وخشية على قطع مورده، وهذا تأكيد لمعاناة الآباء وحرصهم على تقديم مصلحة أبنائهم على مصالحهم، ومن الروايات اللطيفة التي تظهر مكانة الأب وحرصه على أولاده، ما دار بين أبي الأسوَد الدؤلي وأولاده من حديث جميل، حيث قال لهم يوماً في معرض تبصيرهم: «**لقد أحسنتُ لكم قبل أن ولدتم وبعد أن ولدتم**»[1] فقالوا: نعلم أنك منحتنا علمك بعد ولادتنا، ولكن كيف إحسانك لنا قبل الولادة. قال: نعم، فإحساني بعد ولادتكم باختيار أسمائكم وتعليمي إياكم ما يفيدكم بدنياكم وأُخراكم، ولكن إحساني لكم قبل الولادة، فباختياري أمهاتكم من حيث لا تُعابون، ورغم أن عملية الاختيار من واجبات ومسئوليات الاباء التي حملتها إياهم السنة الشريفة، بقوله عليه السلام مخاطباً الرجل: «**اظفر بذات الدين**»[2] ومخاطباً المرأة ووليّها: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه**»[3] إلاّ أنها إحسانات تظل مفروضة على الأبناء تقديرها ومبادلة الآباء إحسانهم بإحسانٍ أَحْسَنْ، ورد جَمائلهم بطريقة أفضل.

سُئل حكيم عن الأبناء فقال بخبرة الأب ومعاناته وإحساسه بالمسؤولية: «**إن عاش كدني، وإن ماتَ هدني**». وأما حسن البصري التابعي فقال لمن جاء يبشره بولادة ابنه: «**لا مرحباً بِمن إن كنتُ غنياً أذهلني، وإن كنتُ فقيراً أتعبني، أهتمُّ بفقره حتَّى بعد مماتي، حين لا ينالني به سرور ولا يهمّه لي حزن، ثم قال: هلك المعيلون**» أي الآباء الذين يعيلون عدداً كبيراً من الأولاد. وقال عبد الله بن عباس لرجل رآه يحمل طفله على عاتقه، وهو يطوف حول الكعبة المشرفة: «إنْ عاش فتنَك، وإن ماتَ أحزنَك». وقيل في الأمثال:

---

(١) الأمالي للقالي: ج٢، ص١٢.

(٢) صحيح البخاري: ج٥، ص١٩٨٥.

(٣) المصدر نفسه. جواهر البخاري: ص٤٢٢.

«النكد كل النكد من رماه الأبد كل عام بولد» ومن أجل هذه المعاناة والمكابدة والأحزان والنكد التي يعانيها الآباء فقد أكّدت السنّة المحمّدية على ضرورة احترام الآباء وتوقيرهم، وردّ جميلهم في كبرهم وشيخوختهم خاصة، والامتثال بنصوص آيات القرآن الكريم وأحكامها، التي تحثُّ على طاعة رب العالمين بشكر الوالدين ورحمتهم وعدم إغضابهم، لأنهم (الآباء) سبب وجودهم ومجيئهم إلى هذه الحياة، وتحملهم المشقة والتعب في تربيتهم، ونظرة في قول الأب الشاعر، نعلم كم يعاني الأب ويكابد ويتحمَّل مادياً ومعنوياً في سبيل تأمين لقمة العيش لأبنائه، خوفاً عليهم من الجوع والعري قائلاً[1]:

والله لـــولا صبيـــةٌ صغـــارْ وجـــوهُهـــم كـــأنّهـــا أقمـــارْ

لمـــا رآنـــي مَلِـــكٌ جبّـــارْ ببـــابـــه مـــا طلَـــع النَّهـــارْ

وفي السياق نفسه نسمع خليفة المسلمين معاوية بن أبي سفيان، يقول بإحساس الأب وإشفاقه وحنّوه: «لولا يزيد لأبصرت رشدي»[2]، ويزيد هو ابنه وقد هيأ له ولاية العهد (الوراثة) التي قلَبَت نظام الحكومة العربية وشكلها وخلقت عداءات وأحقاداً ظلّت قروناً، ومن بعده عبد الملك بن مروان الذي قال: «لقد أضر بنا الوليد وكأنه يؤدبنا ولا نؤدبه» والوليد هو ولي العهد الذي تولى الخلافة من بعده.

قيل: «**إنَّ برَّ الآباء بأبنائهم أقلُّ في الميزان من برّ الأبناء بآبائهم**» وذلك من منطلق أن برّ الآباء بأبنائهم واجب عليهم، مدفوعين بقوة أثر الفطرة التي فطرها الله في عباده ومنهم الآباء، حيث أودع في قلوبهم حب أبنائهم ورحمتهم والخوف عليهم وافتدائهم بأنفسهم وإيثارهم عليها، تلقائياً وغريزياً، حتى الآباء من الحيوانات المتوحشة والأليفة. لقد رويَ أنه بينا

---

(١) محاضرات الأدباء: ج١، ص٣٢١.

(٢) العقد الفريد: ج٢، ص٤٢٩.

كان المنصور في مجلسه وقد كان صالح العبسي ـ أحد أقرباء المنصور ـ يتحدث في مجلسه ويقول: قال أبي رحمه الله، فيقول له وزير المنصور: لا تكثر الترحم على أبيك في حضرة أمير المؤمنين، فما كان منه إلا أن أجابه: لا ألومك، لأنك لم تذق حلاوة الآباء. وفي هذا الجواب شتم وقدح، فقال المنصور مبتسماً: هذا جزاء من يتعرّض لآل هاشم. نعم فإن حلاوة الأبوة ومذاقها ودفئها والشعور بالأمان في أحضانها تجعلنا لا نلوم من لا يجربها، إذا كان حُرِمَ من صراحة الأبوة سواء باليتم أو عدم الاعتراف بالبنوة.

ونظرة إلى شعر هذا الأب الأعرابي للبنوة، مما يشعر الأبناء بالدفء والحنان(١):

نَشَأَ بُني فكان مثلي ... يَلبِسُ ما قد نَزَعتُ عني
فسرني ما رأيتُ منه ... وساءني ما رأيتُ مني

يسره أن يرى ابنه ينمو ويكبر حتّى صار رجلاً مساوياً له، ولكن يسوؤه شعوره بالسير نحو الضعف والكهولة، فهو يعلم أن الأيام تمضي وتقود ابنه نحو القوة والاكتمال، ولكن الأيام تضعفه وتقوده إلى حتفه في النهاية. وهذا أب آخر هو سعيد بن صمصمة ينشد مرقصاً ابنه(٢):

أُحِبُّ (ميمون) أشدّ حُبِّ ... أعرف منه شَبَهي ولُبّي

وأبٌ آخر يُنشِد(٣):

وإنّا لنرى أقدامَنا في نعالِهم ... وأنفُنا بين اللّحى والحواجِب

مما سبق نعلم أنَّ الأب يُواصل العناية والرعاية على أبنائه في جميع مراحل أعمارهم، وينفق عليهم عطفه وحنانه ورحمته، ويعطيهم من فيه ومن

(١) محاضرات الأدباء: ج١، ص٣٢٢.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.

قلبه ومن نفسه، ويسعى جاهداً ويعمل صامداً مستمراً في عطائه لأبنائه في جميع مراحل حياتهم، بدءاً من مرحلة الطفولة والصبا إلى مرحلة الفتوة والشباب، مروراً بمرحلة الشيخوخة ثم الكهولة، ومنهم من سمعناه يقول حتّى بعد الممات. صدق رسول الله إذ يقول: «**الأب باب من أبواب الجنة فاحفظ ذلك الباب**». ونسمعه يقول لرجل جاء يخبره برغبته في الجهاد فيسأله عليه السلام: «**أحيٌّ أبواك؟ فيجيبه: نعم يا رسول الله، فيقول له، فيهما فجاهد**»[1].

وهنا معنا الآن الشاعر العربي الحكيم أمية بن أبي الصلت، وهو المعروف بقصيدته المشهورة التي يودعها مشاعر وأحاسيس كل الاباء في كل الأماكن والأزمان، وهي طويلة أنشأها حينما رأى من ولده ما بدا له أنّه صدودٌ وعزوفٌ وما يشبه العقوق، فقالها معاتباً ايّاه، ويهمنا في هذه المقام هذه الأبيات، إذ يعدد فيها كدّه وجدّه ورعايته والعناية به والسَّهر على راحته، مِما يظهر جهود الاباء فيقول[2]:

غَـذَوتُـكَ مَـولـوداً وعُلتُـكَ يـافعـاً ... تعَـلَّ بمـا أجْنـي عليـكَ وتَنْهَـلُ
إذا ليلةٌ نابَتْكَ بالشَّكوِ لم أبِتْ ... لِشكـواكَ إلاّ سـاهـراً أتَملمـلُ
كأنّي أنا المطروقُ دونكَ بالذي ... طـرقْـتَ بـه دونـي فَعَيْنِـي تَهْمِـلُ

إنها أبياتٌ قليلة لكن معانيها ومغازيها كثيرة، يفهمها ويتفاعل معها الآباء الذين يحسون الأحاسيس نفسها لصدقها وتفجرها من واقع المشاعر الأبوية، لأن الاباء يأملونَ أن يلاقوا المعاملة بدرجة الإحسان نفسها التي عاملوا بها أبناءهم وأن تكون قد أثَّرَت فيهم وخلقَت لهم مكانةً وتوقيراً في قلوبِهم.

---

(١) رياض الصالحين: ص١٣٣.

(٢) الكامل: ج٤، ص١٩، ديوان أمية بن أبي الصلت: ص٢٣٣.

وفي مقابل ابنِ (أميّة) نرى هذا الابن يفتخرُ بآبائه مقدراً لهم جهودهم ومعترفاً بما حققوه في حياتهم، ويعترف في الوقت نفسه بتقصيره عن مجاراتهم وإنجازاتهم، فيقول منشداً بصدق الشعور والعاطفة[١]:

ورثنا المجدَ عن آباء صدقٍ أَسَأْنا في ديارهم الصَّنيعا
إذا الحَسَبُ الرَّفيع تعاورتْهُ ولاة السّوء أوشك أن يَضيعا

ولقد سَمِع عمر بن أبي ربيعة مرة منشداً ينشد في حضرته هذا البيت[٢]:

كُن ابنَ مَنْ شِئْتَ واكتَسِبْ أدَباً يُغنيكَ محمودُهُ عَن النَسَب

فلم يعجبه المعنى المقصود في هذا البيت، فرد عليه مؤكداً مكانة الأب والأم في توريث الابن الحسب والنسب والذكاء موضع الفخر[٣]:

لا فخْرَ إلاَّ فَخارَ مُنْتَخَبٍ يَسْمو بأمَّ كريمةٍ وأبِ

وقال شاعر آخر يؤكد أن مصدر الافتخار هو الدين والتقوى فيقول[٤]:

لعمركَ ما الإنسانُ إلاّ بدينه فلا تتركِ التقوى اتّكالاً على الحسبِ
فقَد زَيَّنَ الإيمانُ سلمانَ فارِسٍ وقد وضعَ الشّرْكُ الشريفَ أبا لَهَبِ

لقد اعترفَ العرب في جاهليتهم للخنساء، معاظمتها إياهم في مصيبتها التي حلّت بها بموت أبيها وأخويها، وبعد موت عتبة والد هند امرأة أبي سفيان، وعمّها وأخيها يوم بدر، صارت تعاظم الخنساء في مصيبتها وتقول: إنَّ موت أبي عتبة أعظم مصيبة تحلّ بالعرب، وتلاقت الشاعرتان في يوم عكاظ، وأبدت كل واحدة منهما شعورها وإحساسها بعِظَمِ مصيبتها بِموت أبيها، فقالت هند بنت عتبة تذكر مكانة أبيها في قومه[٥]:

---

(١) محاضرات الأدباء: ج١، ص٣٣٦.
(٢) المصدر نفسه: ص٣٣٨، والمستطرف: ج١، ص٥٤.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) الرثاء في الجاهلية والإسلام: ص١٤٨.

أَبكـــي عَميـــد الأبطَحيْن كِلاهما ومانعها مِنْ كلّ بـــاغٍ يريدُهـــا
إلى عتبة الخيرات وَيْحَكِ فاعلَمي وشيبة الحامي الذّمار وليدُها
أولئِـكَ آل المجـدِ وآل غـالـبٍ وفي العزِّ منها حينَ يُنمى عديدُها

فقامت الخنساء ترد عليها بقولها موضحةً منزلة أبيها ومكانته في قلبها[1]:

أبكـــي أبـــي بِعَيْـــنٍ غَـــزيـــرَةٍ فلَيلـي إذا نـامَ الخلـيُّ هجـودُهـا
ودَهْـري لا أنسـى معـاويـةَ الّـذي له من سُراتِ الحرَّتَيْنِ وقُودُها
وصخراً ومَن مثلُ صخرٍ إذا غدا لسـاحَتِـه الأبطـالُ قِـرْمٌ يقـودُهـا
فـذلـك الـرزيُّ يـا هِنْـدُ فـاعلَمـي نيـرانُ حَـرْبٍ حيـنَ شَـبَّ وقـودُهـا

إنها لم تنسَ أخويها حين ذكرَت أباها الذي أنجبها وكانا على شاكلته.

وهنا شاعرة أخرى تقول في أبيها موضحةً مكانته عندها وأظنّها تردّ على هندٍ أيضاً:

ألا فـاقصـري يـا هنـدُ لـن تـرَي أبـاً مثلـه تُنمـى إليـه المفـاخِـرُ

وهذه شاعرة ذبيانية، يموت أبوها ويتقاعس قومها عن الأخذ بثأره، فتنهض تستشير فيهم الحمية وترميهم بصفات لا تليق بالرجال، ومما تقوله:

يـا بَنـي ذُبيـانَ بكّـوا عميـدكـم بكـلّ دقيـقِ الحـدِّ أبيـضَ بـاتـر
فإن أنتُم لم تُصبِحوا القومَ بغارَةٍ يحـدِّث عنهـا واردٌ بعـد صـادر
وترموا عقيلاً بالتي ليس بعدها بقـاء فكـونـوا كـالإمـاء العـواثِـر

كما أن الشاعرة منفوسة بنت زيد الفوارس ترقص طفلاً لها، وبدت وهي ترنو إليه وترمقه بنظرات الحب إعجاباً بشكله ومظهره، وتتوسَّم أن يكون جوهره أصيلاً كشكله، فقالت وهي المعجبة بأبيها الملقَّب بزيدِ الفوارس، فتوقعت أن لا يكون ابنها مثله أو يصل قريباً من صفاته التي يتمتَّع بها:

---

(١) الرثاء في الجاهلية والإسلام: ص١٤٨.

أشْبِه أخي أو اشْبِهَنَّ أباكا
أمَّـا أبـي فلَـنْ تَنـالَ ذاك
تَقْصُـر أن تنـالـه يـداكـا

إعجاب شديد بالأب، ولا بدّ لهذا الإعجاب من مبررات وشواهد، فكل ابنةٍ بأبيها مُعجبَة، لكنه زيد الفوارس والد منفوسة هذه التي ترى أن أباها وحيد عصره، ولن يُدانيه أحد في صفاته أو أفعاله أو فروسيته، حتّى حفيده فلن يضاهيه.

إن حبَّ الآباء لأبنائهم وتأثيرهم في معنوياتهم، غير مقصور على فئة من الناس أو طبقة معينة، فالأب هو الأب سواء كان فقيراً أو غنياً، أو كان فارساً أو جباناً، فإنه يحمل في أعماق قلبه حب الابن الفطري، فطرة من الله فطرها في قلوب الآباء، فلننظر في رحمة هذا الأب البسيط رقيق الحال الذي عقّه ابنه فصار يدعو عليه في زحمة غضبه وانفعاله، ومما قاله في ابنه واسمه (مُنازل)[1]:

جَـزَت رَحـمٌ بَيْنـي وبيـنَ (منـازل) جزاءً كَمَن يَسْتَنجِزُ الدَّيْنَ طالبُه
تـربّـى حتـى صـار جعـداً شمـردلاً إذا قامَ ساوى غاربُ الفَحْل غاربُه
تظلمنـي مـالـي كـذا ولـوى يَـدي لـوى يَـدَهُ الله الـذي لا يغـالبُـه

وقال أكثر من ذلك وهو منفعل وعاتب، ومتأثر جداً بموقف هذا الولد العاق الذي كان يأمل منه إحسانه ورحمته والبرّ به في شيخوخته، لقاء بذله وعنايته ورعايته له في صغره، لكن هذه الأبيات تطير بسرعة حتّى تصل إلى الوالي، فيرسل شرطياً لإحضار الولد ليعاقبه على تصرفه الشائِن بحق والده، لكن الأب لمّا علم بذلك، أسرع ينبّه الولد ويساعده على الفرار من الباب الخلفي لمسكنه، حتّى يحميه من معاقبة الوالي. أرأيتَ كيف يكون قلب الأب وخشيته على الابن، في بذل الحماية ودفع الضرر عنه وهو في قمة

(١) عيون الأخبار: ج٣، ص٨٦.

غضبه عليه ورغم الإساءة له؟ إنها الفطرة التي تغطي كل عيب كما قال المتنبي:

وعينُ الرِّضا عَن كلِّ عيبٍ كليلةٍ كما أنَّ عينَ السُّخطِ تُبدي المساويا

وفي العصر الحديث يرثي أحمد شوقي أباه بقوله[1]:

أنا مَنْ مات ومَنْ ماتَ أنا لَقِيَ الموتَ كلانا مَرّتَيْنِ
نحنُ كُنّا مهجةً في بَدَنٍ ثم صِرْنا مهجةً في بدنَيْنِ
ثم عُدنا مُهجَةً في بَدَنٍ ثم نُلْقى جثةً في كفنيْنِ
ثم نحتاجُ عليّاً بعدنا وبه نُبْعَثُ أولى البعثتيْنِ

(وعليٌّ هذا هو ابنه وحفيد والده طبعاً) أي أن الحياة مستمرة في الأب والابن والحفيد، وهذه امرأة جاهلية ترثي أباها بقولها[2]:

إذا ما دَعا الدّاعي عَلِيًّا وجدتَني أراعُ كما راعَ العَجولُ مهيب
وكم من سَمِيٍّ ليس مثل سَمِيّهِ وإن كانَ يُدعى باسمِهِ فيُجيب

لقد أكسبَ حب الآباء لأبنائهم وما يبذلونه لهم ويؤثرونهم على أنفسهم المكانة اللائقة والمنزلة والتوقير ليس عند الأبناء فحسب وإنما عند أبناء الأبناء وعند جميع أفراد الأسرة التي هو راعيها الأول والمسئول عنها وقائد مركبها في خضم الحياة. والأمثلة التي تؤكّد مكانة الأب كثيرة إلاّ إنني أكتفي بهذا القدر ففيه المثل والقدوة والوازع.

ويظلّ الموقف الخالد لإذعان الابن لرغبة الوالد ذلك الذي وقفه سيّدنا إسماعيل عليه السلام، حينما طلب منه أبوه أن يذبحه تقرباً إلى الله وتنفيذاً لأمرٍ تلقّاه من ربّه، فيذعن الولد لأمر أبيه ولم يستطع معارضته سواء كان طاعةً منه أو خجلاً أو خوفاً. والأغلب أنه توقيرٌ ومهابةٌ واحترامٌ، ورغم

---

(١) الشوقيات: ج٣، ص١٥٤.

(٢) ديوان الحماسة: ج١، ص٤٤٥.

ذلك، يظل سيدنا إسماعيل بشراً قبل أن يكون نبياً مرسلاً وابن نبي مرسل، والإيمان اليقيني يملأ قلوبهم جميعاً. إلاّ أن هذا الموقف يظلّ شاهداً خالداً مدى الدهر على إذعان الابن وطاعته لأمر والده وبمجرد الطلب، فيقول تعالى في القرآن الكريم على لسان سيّدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ﴾، يشاوره وبدون تردد أجاب ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وفعلاً تقدَّم الأب إبراهيم لينفذ الأمر ويذبح ولده الذي سلم نفسه لأبيه يفعل به كما يشاء، فيقول جلّ وعَلا ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ وانظر كلمة أسلما وما توحيه من الاستسلام ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي أنه هم فعلاً بذبحه ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ﴾ ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٢-١٠٧] لقد صدق إبراهيم في نيّته الذبح فعلاً وصدق إسماعيل في إذعانه واستسلامه ولم يستطع أن يُخالف إياه مهابةً وتوقيراً.

أنا لا أطالب آباء وأبناء اليوم بمثل موقف سيّدنا إسماعيل عليه السلام، ولكني أطالب الاباء أن يولوا أبناءهم العناية والرعاية التي يستحقونها منهم كأبناء هم مسئولون عن سلوكياتهم أمام الله، فينشئونهم على التربية الدينية ومكارم الأخلاق وأن يشدوهم إلى ثقافتهم الإسلامية والعربية والقيم المتوارثة التي نصَّ عليها القرآن الكريم وسنتهاّ السنة النّبوية الشريفة حتّى يحموهم من الغزو الثقافي الغربي اللاأخلاقي وأن يحصّنوهم بها كأنجع سلاح ضد الانحلال الخلقي والانزلاق في هاوية التفكك الأسري القائم الآن في بلاد الغرب، ويحاولون تصديره إلى البلاد الإسلامية، لخلخلة هذا الدين القوي المتيـن، الذي ما إن تمسَّك به أهله فلن يضلّوا ولن يَهِنوا ولن يضعفوا، بل سيظلون الأَعْلَون، حمانا الله وحما أبناءنا منها، آمين.

* * *

مكانة الأمّهات في الأسرة

الأم والأمومة والأمّة، مفردات مترابطة ومتكاملة، فالأم هي التي تصنع الأفراد الذين تتكون منهم الأسرة، والأسرة أساس المجتمع والأمة. والأمومة تختزن أنهاراً من الرحمة والحنان والعطف والحُب والإيثار، وبهذه الخصائِص التي خصها الله بها، فإنها الأقدر على تحمل مسئولية التربية والتنشئة، وزرع بذور الإيمان والحب والإخلاص والأخلاق الفاضلة في قلوب الأبناء (أبناء الأسرة وأبناء المجتمع والأمة)، وغرس بذور الانتماء إلى أسرهم وإلى أمّتهم في نفوسهم منذ طفولتهم. وبهذه الأعمال والصفات فقد اكتسبت أعلى مراتب المكانة والإعزاز لدى أبنائها وأسرتها على وجه العموم، وبما أن جميع أفراد الأسر والمجتمعات، هم في الأصل أبناء لأمهات، فأصبحت الأم تتمتع بِمنزلة اجتماعية كبيرة حيث قيل: «أن المرأة نصف المجتمع، بل هي كل المجتمع».

صحيح، إنَّ الله قد أمر بالإحسان إلى الوالدين (الأب والأم) فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، إلاّ أنّه خصها بآياتٍ أُخَر تفوّقَت بها على الأب عطاءً وتحملاً لمتاعب الحمل والولادة والرعاية، فقال جلَّ وعلا: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥]. وقال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤].

لقد عرف الأبناء على مرّ الدهور وكرّ العصور، مكانة أمّهاتهم وما قَدَّمْنَهُ لهم وهم أجنّة وأطفال وفتيان، فبادلوهن الحب والإحسان والعطف والحنان والرحمة، وبهذا أوصى النبيُّ ﷺ بالأم ثلاثاً، وبالأب مرة واحدة، فقال عليه السلام عندما سُئل عن حسن الصحبة: «**أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك**»[1].

---

(١) رياض الصالحين: ص١٣١، جواهر البخاري: ص٤٦٠.

وقال عليه السلام: «**حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات** . . .»[1]. وقد قيل عن الأم: (ليس في العالم وسادة أنعم من حضن الأم). كما قيل تعبيراً عن طبيعة جوهر الأم وأهميّة ما يُمكن أن تقوم به: (إنَّ الأم التي تهزّ اليوم سرير طفلها بيمينها فربّما غداً تَهزّ العالم بيسارها).

وقد حمل إلينا الشعر العربي منذ القدم افتخار الأبناء الشعراء بأمهاتهم، وبيان فضلهن، وسهرهنَّ على تربيتهم وتنشئتهم كما أرَدْنَ لهم، حتّى اشتهرَ بعضهنَّ بألقاب تكريمية، كأمِّ الكَمَلة، وأم البنين. حتّى إنَّ بعض القبائل تسمّت على اسم الأم، كباهلة، ووائلة، وخندف، وذلك تكريماً لهذه الأم واعترافاً بفضلها.

وهكذا، فإنَّ رحمة الأم وبرّها واحترامها والإحسان إليها إنّما هي أوامر سماوية مفروضة على الأبناء وتكليف بقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]. فواجب الشكر إنما يؤدّى لصاحب نعمة فُضلى أسداها، أو خدمةٍ جُلّى أدّاها.

والله سبحانه وتعالى أعلم بمن خلق، فقضى أن لا يُعبدَ سواه كونه الخالق جلَّ شأنه، ثم الإحسان والشكر للوالدين بصفتهما السبب في خلقه ووجوده في الحياة، فقال جلّ وعلا في سورة الإسراء: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

استحقَّت الأم هذا التكريم وبتقدمها على الأب بما خصّها الله من خصائِص خاصّة بها، فاستودعها الوعاء الذي تتم فيه عملية الخلق والتكوين بقدرته تعالى، فيقول: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦].

---

(١) رياض الصالحين: ص١٣١، جواهر البخاري: ص٤٦٠.

والأم خلال عملية التكوين تعاني وتبذل من نفسها وجسمها، وبعد ذلك يستمر عطاؤها، فترعى وتعنى وتربي، يعينها على أداء ذلك غريزة الأمومة التي فطرها الله في قلوب الأمهات، لتفيض هذه القلوب بصادق الحب والعطف والحنان والرحمة والرأفة بالأبناء، وإقبال الأم على الولد بكل جوانحها وإغداقها عليه بحب لا يعلوه أو يدانيه حب آخر، إنما هو حب موجّه للابن من دون الناس، فلا تملُّ الأم من الشوق إليه والالتصاق به، لتجد متعتها بالتلذذ في خدمته ورعايته والعناية به مما أسس لتبوءها المكانة المرموقة التي تتمتع بها والمنزلة التي تحتلها عند أبنائها وجميع أفراد الأسرة التي تشارك مسؤولية حمل أعبائها والإشراف على تكوينها، ولنستمع إلى هذه الأم كيف تغمرها السعادة وهي ترقص ولدها وتنشد له[1]:

يا حبّذا ريحُ الولد ... ريحُ الخُزامى في البلد
أهكذا كل ولد ... أم لم يلد غيري أحد

إنه حياتها ودنياها، وإنها تخصهُّ وحده بهذا القدر من الحب الغامر والإقبال والعطاء بسخاء من معين الحنان المخزون في قلب الأم لا ينضب، فكيف لا تتمتع مثل هذه الأم بالمكانة والتقدير والتوقير والاحترام من أبنائها وهي تقدم إليهم كل هذا الحب، وعندما نستمع إلى إنشاد هذه الأم نلمس الصدق الفطري في التعبير، حينما تعبر عن شعورها على سجيّتها تجاه ابنها الذي فارقها ورحل الرحلة الأبدية فتقول[2]:

كنتَ السواد لِمقلَتي ... فعَمى عليكَ الناظرُ
مَن شاءَ بعدكَ فَليَمُت ... فعليكَ كنتُ أُحاذِرُ

---

(١) العقد الفريد: ج٢، ص٤٣٧.
(٢) نهاية الأرب: ج٥، ص١٦٣.

ومن أرحم مظاهر الأمومة وأصدقها وتُعدُّ من الأساسات القويّة في المكانة والمنزلة في قلوب الأبناء الذين تكون مثل هذه الأم أمّاً لهم، ما روي عن سيّدتنا عائشة أمّ المؤمنين، قالت: **جاءتني امرأةٌ ومعها بنتان، فلم أجد عندي سوى ثلاث تمرات فأعطيتها إياها، فأخذتها، وأعطت كل بنتٍ تمرة وأمسكت تمرتها، حتى ما فرغت البنتان جعلتا تنظران إلى التمرة التي بيد الأم، فشقتها نصفين وأعطت لكل واحدة منهما شقّاً ولم تأكل منها شيئاً، فغادرَت وهي على تلك الحالة، فدخل رسول الله ﷺ وأنا لا زلتُ مأخوذةً من هذا الموقف، فسألني عليه السّلام عمّا حدث، فأخبرتُه خبر المرأة وابنتيها فقال: «إنهم يُجبنون ويُبخلون»**[1] أي الأولاد، وفي رواية أخرى «**أنهم مبخلة ومجبنة**».

تُعدّ الأم المعلم الأول للولد والمؤثر عليه، فهي أول من يفتح عينيه عليها، فتلقنه حروف النطق الأول، ويرتشف مع كل قطرة من لبنها شيئاً من ثقافتها وحضارتها، ويقتبس من سلوكياتها، ويرث عنها طبائعها حتى قيل: (تكاد المرأة أنْ تَلِدَ أخاها أو أباها)[2]. وقال عليه السلام: «**تخيّروا لنطفكم، فإنَّ العِرْقَ دسَّاس**». وتأسيساً على هذه المأثورات والثوابت المؤكَّدة، اجتهد الآباء باختيار زوجاتهم، أمهات أبنائهم، وهنا نسمع شاعراً ينشد[3]:

تخيَّرتُها للنَّسلِ وهي غريبةٌ فجاءَتْ به النَّسْلَ خرقاً سُمَيْدَعْ

وهذا الدور المهم للأم جعل بعضهم يؤكّد أنها مدرسة بحدّ ذاتها، ويجب الاهتمام بإعدادها وتأهيلها لأداء مهمتها الأساسية، فقال الشاعر

---

(١) صحيح مسلم: ج٥، ص٢٢٣٤.

(٢) صحيح مسلم: ج٥، ص١٩٥١.

(٣) محاضرات الأدباء: ج٢، ص٣٢٨.

في العصر الحديث، حافظ إبراهيم (ولابد من الاستشهاد بهذا الشعر الحديث)[1]:

الأمُّ مــــدرســــةٌ إذا أعــــدَدْتهــــا ... أعْــدَدْتَ شعبــاً طيِّــبَ الأعــراق

مَــنْ لــي بتــربيــة النســاء فــإنّهــا ... فــي الشــرق علّــة ذلــك الإخفــاق

وقد حفظت لنا كتب التراث الكثير من الأمهات أدَّينَ مهمَّة الأمومة وأعددنَ أولادهنَّ إعداداً منهجياً سليماً هادفاً، وبمسئولية والتزام، باعتبارهم فلذات الأكباد أولاً، ثم تأهيل هؤلاء الأبناء لتحقيق هدف معين ليبنوا مجداً لهم شخصياً أو لعائلاتهم وأُسَرِهم وبلوغ سيادة أو قيادة، وعندما نستمع لهذه الأم (أم الفضل زوجة العباس) رضي الله عنهم تنشد لولدها وهي ترقصه، فنحسُّ إصرارها على تحقيق الهدف، ونستجلي مخططاتها ونواياها وَلْنَقُل آمالها وتمنياتها التي تسعى إلى تحقيقها، عندما تقول لمن توقع مستقبلاً سيادياً لطفلها[2]:

ثَكَلْــتُ نَفْســي وثَكَلْــتُ بِكْــري ... إنْ لــم يَسُــدْ فِهــراً وغيــر فِهْــرِ

وأمّ شاعرة أخرى، تشمّر عن ساعد الجد، وتستمدّ من أصول ولدها وعروقه التي ينتمي إليها، لتنهل من معينها، وتنسج على منوالها، وتنتهج نهج السلف في إعداد الخلف[3]:

نَمــا بــه إلــى الــذُّرى هشــامُ ... قِــرْمٌ وآبــاءٌ لــه كِــرامُ

جَحــاجِــحٌ خضــارمٌ عظــامُ ... مــن آل مَخــزوم هــمُ الأعــلامُ

والهــامــةُ العليــاءُ والسَّنــامُ

(١) ديوان حافظ إبراهيم: ج١، ص٢٨٢.

(٢) االأمالي للقالي: ج٢، ص١١٧.

(٣) المصدر نفسه.

أمّا هذه الأم التي تكنّى (بأم عمرو) فإنها تروي لنا قصة كفاحها، عبر رحلةٍ طويلة قضتها في تربية ابنها، ونستدل من شعرها، أنها كانت تضع نصب عينيها هدفاً محدداً لإعداده إعداداً خاصاً وتنمية على عادات ومهارات وشمائل خاصة تؤهّله أن يتبوأ منصباً كانت تأمله، مما جعلنا نضعها في قمة من يستحق احتلال مكانةٍ ومنزلةٍ عليا وقدراً من التوقير والاحترام والاعتراف بالجميل عند أبنائها فتقول شارحة أسلوبها في التربية وما بذلته في سبيل إعداده الإعداد الذي سعَت إليه[1]:

رَبّيتُــــــه دَهْـــــــراً أُفتّقُـــــــهُ ... فــي اليُسْــر أغْـذوه وفــي العُسْــرِ
وَحَمَلْتُـــــهُ مـــن شَغَـــفٍ بـــه ... فــي الأرضِ بيــن تنـائِـفٍ غُبْـرِ
أَدْعُ المـــزارعَ والحصـــونَ بـــه ... وأُحِلَّـــه فـــي المَهْمَـــهِ القَفْـــرِ
مـــا زلـــتُ أُصْعِـــدُهُ وأُحْـــدِرُهُ ... مِـــنْ قُتْـــرِ مـــومـــاةٍ إلـــى قُتْـــرِ
حتَّـى استـوى وعَـلا الشَّبـابُ بـهِ ... وبَـــدا منيـــرَ الـــوَجـــهِ كـــالبَـــدْرِ
ورجـــا أقـــاربُـــهُ منـــافعَـــهُ ... ورأوا شمـــائِـــلَ سيّـــدٍ غَمْـــرِ

إنَّ أمّاً كهذه، تؤدّي رسالة الأمومة بهذه الدرجة العالية من الدراية والرعاية والخبرة والمسئولية، لتحقيق هدف بناء رجل متكامل ليسود عشيرته، لجديرة بالبِرِّ والإحسان والطاعة في كل وقت وزمان وجديرة بالاحترام والتقدير والتوقير وخلع أسمى الأوسمة عليها.

وأم أخرى تستحق أرفع أوسمة الأمومة، هي فاطمة بنت الخشرب، إذ أنها أدّت رسالةَ الأمومة بكفاءة وجدارة نادرة، وخبرةٍ كاملة بمسئولية الأم، تبدو واضحة جلية في قولها: «إني والله ما حملتُ واحداً منهم تَضَعاً، ولا

(١) زهر الآداب: ج٢، ص٤٦٠.

ولدته يَتَناً، ولا أرضعته غَيلاً ولا أبته على ماقة»[1]، لقد أنجبت هذه الأم لزوجها زياد العبسي أربعة أبناء، حمل كل واحد منهم لقباً عُرِفَ به فلقب الربيع (الكامل)، وقيس (الحافظ)، وعمارة (الواهب)، وأنس (أنس الفوارس). وقد لفتت كفاءتها في حسن تربيتها وإعدادها لأبنائها أنظار الناس، فلقبوها بـ(أم الكملة) أما الشاعر قيس بن زهير فقد لقبها بـ(الجنية) كناية عن عظيم جهودها التي لا يقدر عليها إلا الجنيات فقال[2]:

لعمرُك ما أَضاعَ بنو زيادٍ ذمارَ أبيهم فيمَن يَضيعُ
بنو (جنّيةٍ) ولدَت سُيوفاً صوارِمَ كلّها ذكرٌ صَنيعُ

لقد ختَمَت هذه الأم حياتها، بتقديم خدمةٍ جليلة لأبنائِها الكملة حسب مفهومها، فقد ألقت بنفسها من فوق جَمَلها عندما ضل بها ووقعت سبية بيد أحد أعداء أبنائها، هو بدر بن حمل، فقتلت نفسها خشية أن تلحق عاراً بأبنائِها الكملة، جراء سَبيِهَا، فهل بعد هذا العمل الذي جادت بنفسها فيه ما يضفي على الأم من رفعة المكانة وعلوّ المنزلة؟؟

وعلى نفس هذا المنهج نفسه، أنجبت أم البنين بنت عمرو[3] أبناءً تعهّدتهم بحسن الرعاية والإعداد، ولقّنتهم أصول التربية وغرست في نفوسهم الشجاعة والفروسية، والصفات الحميدة، والفضائل النبيلة، حتى سادوا أقوامهم في عصرهم وَوُسِمَ كل منهم بخُصلة عُرِفَ بها، فَعُرِفَ مالك

---

(١) التضع: الذلّ.
اليتَن: خروج رجل المولود قبل رأسه.
الغيل: الرضاعة أثناء الحمل.
الماقة: البكاء.
الأغاني: ج١٧، ص١١٧، الأمالي للقالي: ج٢، ص٤١.
(٢) الأمالي للقالي: ج٢، ص٤١. ديوان الحماسة للتبريزي: ج١، ص١٨٠.
(٣) الأمالي للقالي: ج٢، ص٤١.

بلقب، (ملاعب الأسنة)، وطُفَيل (فارس قرزل) وربيعة (ربيع المُقتِرين) ومعاوية (معوِّذ الحكماء) وسلمى (نزّال المضيق)، وقد ذكرهم الشاعر لبيد بن ربيعة في نطاق افتخاره بجده ربيعة وجدته أم البنين هذه، التي استحوذت على إعجاب الناس ونظرتهم التقديرية لها مما ساهم في رفع منزلتها ومكانتها ومن إنشاده[1]:

نحـــن بنـــو أمِّ البنيـــن الأربَعـــهْ مـــن خِيـــار عـــامـــر بـــن صَعْصَعَـــهْ
المطعمـــون الجِفْنَـــة المـــدَغْـــدَغَـــهْ والضاربون الهام تحت الخَيْضَعهْ

ومن الأمهات المعروف لهنّ بفضل تربية الأبناء وإعدادهم حتى ارتقوا سلّم المجد والرئاسة، ريطة بنت سعيد بن سهم، وقد ولدت ثمانية أبناء حاز كل منهم شرفاً عظيماً، ومنهم أبو ربيعة بن المغيرة جد عمر بن أبي ربيعة الشاعر، وقد ذكرها الشاعر عبد الله بن الزبعرى ممجداً هذه الأم وأبنائها بقوله[2]:

لله قـــومٌ وَلَـــدَت أخـــتُ سَهْـــمٍ
هشام وأبو عبد مناف مدره الخَصْم
وذو الرمحَيْن أشياك مِن القوّة والحزم
أسودٌ تزدهي الأقران متّاعون للهَضْمِ
وهُم يوم عُكاظٍ منعوا الناسَ من الهَزْم
فإن أَحلِفُ ببيتِ الله لا أحلفُ عن إثمِ
ما إنْ أخوةٌ بين قصورِ الشام والرَّدمِ
كأمثال بني (ريطة) مثل عُرب وعُجم

---

(١) الأمالي للقالي: ج٢، ص٤١.
(٢) الأمالي للقالي: ج٣، ص١٩٦.

وإلى جانب ما تبذله الأم من تعهد واعٍ وعناية وعطاء مسئول، فإنها حين ترى ابنها يتعرض لمكروه، تتمنى لو تستطيع تقديم روحها وعمرها لإنقاذه، يدفعها الحب الصادق الفطري، والرحمة والحنان الغريزي على الولد واستجابة للفطرة التي فطرها الله سبحانه عليها، فالسليكة أم السليك تقول وما أظنَّها إلا جادَّةً وصادقةً[1]:

ليتَ نفسي قُدّمَتْ للمنايَا بَدَلَكْ

وتتمنى أم عمرو الأمنية نفسها، البسيطة الفطرية التي تقولها على السجية، تكشف صدقها وجديتها النابعة من قلب أمٍّ ضاع أملها وحلمها الذي سعت إليه مدى عمرها، وكرست حياتها لتحقيقه، فتقول[2]:

لو قيل تَفْديه بَذَلْتُ له مالي وما جمَّعْتُ من وَفْر

أو كنتُ مقتدراً على عمري آثرتُه بالَّشطر من عمري

إن مواقف مثل هذه الأمهات من الأبناء جعل الناس ينظرون لهن نظرة التقدير والإعجاب، كما جعلت الاباء يَمُنّون على أبنائِهم بحسن اختيارهم لأمهاتهم، والأبناء بدورهم افتخروا على أقرانهم بهكذا أمهات فقد روي أن أبا الأسود الدؤلي قال لبنيه يوماً: لقد أحسنت إليكم قبل أن ولدتم وبعده، فقالوا: كيف أحسنتَ إلينا قبل أن ولدنا؟ قال: تخيّرت أمهاتكم من حيث لا تُعابون.

والرسول عليه السلام افتخر بجداته يوم حنين بقوله: «**أنا ابن العواتك من سليم**» والعواتك أسماء جداته عليه السلام من جهة أمه وأبيه.

وكثيراً ما يفتخر الشاعر العربي بحسب أمه ونسبها ومكانتها ومنزلتها، كما يفتخر بأبيه بقوله:

---

(١) ديوان الحماسة، شرح التبريزي: ج١، ص٣٧٩.

(٢) زهر الآداب: ج٢، ص٤٥٩.

نَمَتْنا إلى عمروٍ عروقٌ كريمةٌ وخولانَ معقود المكارِمِ والحَمْدِ
وأمّي ذاتُ الخيرِ بنت ربيعةٍ حرّية من عيص السّماقِ والمجدِ

ويُعلي الشاعر الشنفرى من شأن بيت أمه بقوله[1]:

أنا ابنُ خِيارِ الحِجْرِ بيتاً ومنصباً وأمي ابنةُ الأحرارِ لو تعرفينَها
ولو عَلِمَتْ (قُعسوسُ) أنساب والدي ووالدها ظلّت تُفاخِرُ دونَها

وقعسوس اسم الفتاة التي عابَت عليه نسبه.

ويفتخر هذا الشاعر بنشأة أمه المرفهة، وأنها من ذوات الخدور والشَّرف بقوله[2]:

لقد ولدتْني حريّةٌ ربعيّةٌ من اللائِي لم يُحضِرْنَ في القيظ دَنْدَنا

والسموأل يفتخر بأمه وجميع الأمهات في قبيلته فينشد[3]:

صَفَوْنا فلم نكدر وأخلَص سرَّنا إناثٌ طابت حمْلَنا وفُحولُ
علَونا إلى خيرِ الظّهورِ وحطَّنا لوقتٍ إلى خيرِ البُطونِ نُزولُ

ويرد ذو الأصبع العدواني على من عيره بأمه، ويدافع عنها بأنها ليست أَمَةً إذ كانوا يعيبون على الرجل إذا كانت أمه أمَةً، فيقول:

عنّي إليكَ، فما أُمّي براعيةٍ ترعى المخاض، ولا رأيي بمَغبونِ

واعتزاز الشاعر بأمه، وحمايتها من الإهانة، ودفع كل ما يثلم كرامتها، إنما هو نوع من الإحسان إليها والبر بها والاعتزاز بمكانتها ومنزلتها لديه، فعمرو بن كلثوم أشعل نار حرب حين أحس أن أمه تتعرض لإهانة من أم

---

(١) ديوان الشنفرى: ص٧٨.
(٢) المستطرف في كل مستظرف: ج١، ص١٣٢.
(٣) ديوان الحماسة للتبريزي: ص٢٩، ديوان السموأل: ص٩١.

الملك نفسه، ولم تَهدأ نفسه إلا بعد أن قتلَ الملك ورد اعتبار أمه، ومن قوله[1]:

أبـا هنـدٍ فـلا تَعْجَـل علَينـا ... وأنظِـرنـا نُخبِّـرك اليَقِينـا
بـأيّ مشيئـةٍ عمـرو بـن هنـدٍ ... نكـونُ لقيْلكـم فيهـا قَطينـا
ألا لا يجهلـنَّ أحـدٌ علينـا ... فنجهَـلُ فـوقَ جَهـلِ الجـاهلينـا

الكثير من الناس والشعراء انتقدوا فعلة أم عمرو بن هند، إذ هي المضيفة فتتعمَّد إهانة (ليلى بنت المهلهل) أم عمرو بن كلثوم باستخدامها وهي الضيفة عندها، وقد سكت ولدها الملك عنها، كأنه راضٍ بتصرفها، ومن أولئك النقاد الشاعر صُريم بن معشر، قال مؤيداً نصرة ابن كلثوم لأمه بقوله[2]:

لعمرُكَ ما عمرُو بن هندٍ وقد دعا ... لتَخـدِمَ (ليلـى) أمـه بِمـوفَّـقِ
فجلّله عمرو على الرأس ضربة ... بذي شطبٍ صافي الحديدةِ رَوْنَقِ

واعترافاً بفضل الأم وارتفاع مكانتها ومنزلتها لدى الناس حين تنجح بإعداد ولدها، حتى يصل إلى مجد أو سيادة أو يكتسب صفة حميدة، أو خصلة شريفة، يكنونها باسم ابنها تكريماً لها، وبهذا المعنى يخاطب الحريث بن زيد الخير أم أوس بن خالد بقوله[3]:

لا تجـزعـي يـا أمَّ أوسٍ فـإنَّـه ... تصيبُ المنايا كلَّ حافٍ وذي نَعْلِ

وكذلك تسمّت بعض القبائل بأسماء أمهاتها، إعزازاً وتكريماً، كقبيلة باهلة نسبةً لأمهم باهلة بنت سعد العشيرة، وقبيلة خندف، ووائلة وغيرها كثير جداً.

---

(١) شرح المعلقات السبع للزورني، من معلقة عمرو بن كلثوم: ص١٢٢.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) ديوان الحماسة للتبريزي: ج١، ص٣٥٠.

ومن مظاهر الإعزاز والمكانة التي تحتلها الأم، كانوا يفدون بها، فرسول الله ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص يوم أحد، وقد شاهد حسن بلاءه ودفاعه عنه: «إرم، فداكَ أبي وأمي» وعندما انتصرَ الأوس على الخزرج في أحد أيامهم، أنشد حسان بن ثابت مفتخراً بأمه وخالته بقومه(١):

فِدَىً لبني النجّار أمّي وخالَتي غَداةَ لَقَوهُم بالمثقّفة السُمْرِ

وتُذكر الأم في نطاق استعطاف الأخ لأخيه، لكرامتها وفضلها عندهم ولاشتراكهم بالانتماء إليها، فعندما لامَ سيدنا موسى أخاه هارون عليهما السلام، لإهماله رعاية قومه وزجرهم عندما اتبعوا السامري الذي خدعهم وجعل لهم عجلاً يعبدونه أجابه في القرآن الكريم بقوله مستعطفاً إياه: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ [طه: ٩٤]، إن كلمة الأم لفظة مستعذبة، لها وقع محبب في النفس، ومؤثرات في القلب، يحرك العاطفة كالسحر، ويستثير العطف والحنان، ويستدر الرحمة، فلما رأى الفارس معد بن يكرب (أخاه من أمه) شرحبيلاً مجندلاً، فاضت نفسه بالعطف والرحمة وعينه بالدمع السخين وهو الفارس الجريء، فقال منشداً(٢):

يا ابنَ أُمّي لو شهدتُكَ إذْ تدعو تَميماً وأنت غير مُجابِ

لتركتُ الحسامَ تَجري ظِباهُ من دماء الأعداءِ يومَ الكُلابِ

ويُخاطِبُ أبو زيدٍ الطائِي أخاه بعاطفة الأمومة والأخوة التي تلين أغلظ الأكباد بقوله(٣):

يا ابن أمي ويا شقيق نفسي أنتَ خليتني لأمرٍ شديد

---

(١) شرح ديوان حسّان بن ثابت: ص٢٢١.

(٢) المستطرف في كل مستظرف: ج٢، ص١٢.

(٣) المصدر نفسه.

ومن أحسن مظاهر الوفاء للأم، ونوال رضاها والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى هو الاعتراف بفضلها، والإحسان إليها وبرها في كبرها، فيروى أن رجلاً شوهد يحمل أمه على ظهره ويطوف بها حول الكعبة منشداً:

إنّـــي لهـــا مطيـــةٌ لا أُذعَـــرْ إذا الـــرِّكـــاب نَفَـــرَت لا أَنفِـــرْ

مـــا حَمَلـــت وأرضَعَـــتْ أكثَـــرْ الله ربّـــي ذو الجـــلال أكبَـــرْ

وكان عبد الله بن عباس حاضراً كشاهد، فسأله الرجل: أتراني قضيت حقها؟ فقال: ولا بطلقة واحدة.

ومن الأمهات من تتحلى برأي راجح، وفكر صائب، ومشورة فيلجأ إليها الولد عندما يكون على وشك اتخاذ قرار مهم، ومنهن من تتدخل حين ترى طيشاً من ولدها لترده إلى جادة الصواب، مما يعزز مكانتها ويرفع منزلتها ويفرض تقديرها وتوقيرها، فحين هجا بشر بن خازم الأسدي، أَوسَ ابن حارثة الطائي وذكر في هجائه أمه (سُعدى) أغار عليه وأسره وأمر بقطع لسانه، فلما علمت أمهُ سُعدى طلبته وقالت: «يا بُني مات أبوك فرجوتك لقومك، فأصبحت اليوم أرجوك لنفسك، زعمت أنك قاطع لسان رجل هجاك، واعلم بأنه لن يمحو ما قاله غيره» فقال لها: ماذا أصنع إذن؟ قالت: «تكسوه حلَّتك وتحمله على راحلتك، وتعطيه مائة ناقة، فإنه لا يغسل هجاءه إلا مدحه»، فاستعقل كلامها ومشورتها ففعل كما أشارت عليه به، فتأثر بشرٌ بصنيعه وعفوه عنه وقال: «لا مدحتُ أحداً سواك حتى أموت» ومما قال فيه:

فَما وطِئَ الحَصى مثل ابن (سُعدى) ولا لبِسَ النِّعالَ ولا احتـذَاهـا

وهذا عبد الله بن الزبير يدخل على أمه أسماء بنت أبي بكر، وهي صاحبة المكانة الرفيعة عند كل المسلمين، وهو منكسر خائر العزم لفرار أصحابه من حوله يوم حاصره الحجاج في البيت الحرام بمكة المكرمة،

فشدت أمه من عزمه، وقالت له: لا تُسلِم نفسك لغلمان بني أمية يمثلونَ بك، وزودته بنصائح ترفع بها معنوياته، ومما قالته له تطمئن نفسه، وتهون عليه أمره حين لاحظته خائفاً: إن الشاة يا بني لا يضيرها السلخ بعد الذبح، فالإنسان بعد الموت وخروج الروح إلى بارئها لا يشعر بألم، وخرج من عندها وهو ينشد[1]:

يـــا أمَّ إن مِـــتُّ فـــلا تبكينـــي الـــدَّرْعُ والبَيضَـــةُ لا تُنجينـــي
مِـــن قَـــدَرِ الله إذا يـــأتينـــي قـــد علـــم الأعبُـــدُ أنّ دونـــي
ضربٌ كأبزاغِ المخاض الجوني

ويظل دور الأم متواصلاً في عطائها وحبها لابنها والحدب عليه، تكلؤه إذا نام، وترعاه إذا قام، في مختلف مراحل عمره، ونذكر هنا مواقف بعض كبار الشعراء في العصور السابقة، لنرى كم كانوا يكنون لأمهاتهم من الاحترام والتقدير والتوقير، ويبادلونهن الحب والود والرحمة المتبادلة اعترافاً لِجميل صنيعهن وحسن تربيتهن لهم. فيروى: «أن صخراً بن الشريد أخ الخنساء طُرح بالفراش حتى طال شفاؤه فضجرت امرأته (سلمى) وتبرمت به، وجاء زائر ذات يوم يعوده فسألها عن حاله فقالت: إنه بشر حال، لا هو حي فيُرجى ولا ميت فيُنعى»[2] ويسمعها صخر ويعرف ما في نفسها ومدى ما تكنّه له، ويمر العائِد ذاته على أم صخر فيسألها عن ابنها فتجيبُ بصوت الأم وحنانها إنه بخير حال، ولا نزال بخير ما رأينا سواده فينا، ويشاء الحظ أن يستمعَ صخر إلى الإجابتين فيتأثر، ويجري موازنة بين الموقفين، موقف زوجته، وموقف أمه، فيلمس مدى الصدق الحقيقي والحب الفطري الغريزي الذي اشتملت عليه إجابة الأم التي تعبر عما تكنه

(١) التعازي والمراثي: ص١٦٨.
(٢) ديوان الخنساء: ص١٧.

لولدها من الحب والخير والصحة، ومدى ما له من مكانة وإعزاز يشغل مساحة واسعة تغطي نفسها وروحها وحشاشتها، فينشد صخر أبياتاً يسجل بها شعوره وإحساسه تجاه هذا الموقف المتناقض، موقف أمه وموقف زوجته (ولا نقول كل الزوجات) إذ أنه ليس مطلقاً. فيقول[1]:

أرى أُمَّ صخرٍ لا تَمَلُّ عِيادتِي ... وملَّت (سُلَيمى) مَضجَعي و مكانِي

وما كنت أخشى أن أكونَ جنازةً ... عليك، ومَن يغترُّ بالحدثانِ

فأيُّ امرئٍ ساوى بأمٍّ حليلةً ... فلا عاشَ إلاّ في شقاءٍ و هوانِ

لَعمري لقد أيقَظتِ مَن كان نائماً ... وأسمَعتِ مَن كان له أُذْنانِ

فالموتُ خيرٌ من حياةٍ كأنَّها ... مَعرَس يعسوبٍ برأسِ سَنانِ

كما أنّ الشاعر المتنبي دفع حياته وحياة ابنه وغلامه ومن معهم ثمناً لهجاء رجلٍ اسمه (فاتِك) ذكر أمه في الهجاء فلم يحتمل هذه الإهانة وعدَّها انتقاصاً لكرامة أمه، فكمَنَ له بأحد الشعاب، وفاجأه، فآثر المتنبي السلامة بالفرار، فقال له غُلامه أتفر وأنتَ القائِل[2]:

الخيلُ واللَّيلُ والبَيداءُ تعرفُني ... والسَّيفُ والرُّمحُ والقِرطاسُ والقلَمُ

فعاد المتنبّي لملاقاة (فاتك) ورجاله حتى قُتل ومن معه، وانتقم فاتك منه دفاعاً عن الإهانة التي ألحقها المتنبي بأمه فانتقم لها ولنفسه.

ودفعت جدّة المتنبي نفسها ثمناً لحبّها إياه، ففي اللحظة التي تسلمت فيها أول رسالة تصل إليها منه بعد غيابٍ طويل، فارقت الحياة لشدة فرحها وسرورها برسالته، وسماع أخباره، فرثاها بشعرٍ بليغ يليق بمكانة هذه الجدة، أو الأم الرؤوم التي لم تتمالك نفسها ففاضت روحها حين وقع

---

(١) شرح ديوان الخنساء: ص١٧.

(٢) ديوان المتنبي: ص١٧٤.

بصرها على رسالة ولدها، وتأثر المتنبي بدوره في مدى ما تكنه هذه الأم أو الجدة ومما أنشده فيها من قصيدة طويلة نقتطف ما يلي[١]:

لَكِ الله مِن مَفجوعةٍ بحبيبها ... قتيلةُ شَوقٍ غير مُلحقَها وَصْما
أحِنُّ إلى الكأسِ التي شَرِبَتْ بها ... وأهوى لمثواها التُّرابَ وما ضمّا
أتاها كتابي بعد يأسٍ وترحةٍ ... فماتت سروراً بي، فمتُّ بها غمّاً
ولو لم تكوني بنت أكرم والدٍ ... لكان أباكِ الضَّخم كَونَكِ لي أُمّا

ولعل من روائع الوفاء للأم والبر بها بعد موتها، ما أنشده ابن سناء الملك في رثاء أمه ولا شك أن منزلتها عالية في قلبه ونفسه، لقد بكاها بكاءً حاراً وحزن عليها حزناً شديداً مَلكَ عليه قلبه ونفسه، ومن قوله[٢]:

ليتَ شعري هل تعلَمينَ بأنَّ ... ابنكِ بين الورى قليل الرّواءِ
ذو نحيبٍ فاض وحزنٍ غريمٍ ... وسقام عدلٍ وبشرٍّ مرامي
شَغَلَت قلبه هُمومٌ عظامٌ ... وخلا سرُّه من السرّاءِ

ومن قوله أيضاً معبراً عن حزنه لفقده إياها وهي ذاتُ مكانة عالية وعزيزة عنده[٣]:

حُزني على أمّي حزنٌ شديدٌ ... تَبلى الليالي وهو غَضٌّ جديد
فقُل لنارِ القلبِ هل من مزيدٍ ... وقل لصرف الدهر هل من محيد

وأما أبو العلاء المعري الفيلسوف ذو المحبسين، فقد جزعَ جزعاً شديداً على وفاة والدته، وقد سبقته للموت فتجرع حسرتها وشرب كأس الحزن عليها، فهو يعلم كم للأم من احترام وتوقير، وهو المعروف بعزوفه عن

---

(١) ديوان المتنبي: ص١٧٤.

(٢) ابن سناء الملك حياته وشعره: ص٤٩١ (نقلاً عن كتاب الرثاء في العصر الجاهلي والإسلامي: ص١٤).

(٣) المصدر نفسه.

الزواج خشية أن يجر على الأبناء بؤس الحياة، واتقاء لمثل هذا الموقف الذي يقفه من أمه، ألا وهو موقف الموت والفراق، فرثاها أبو العلاء رثاءً مؤثراً وتمنى لو سبقها، ومن قوله[1]:

وا أمتنـــي إلـــى الأحـــداث أمٌ ... يعــزُّ علــيَّ أن ســارَت أمــامــي
وأكبــر أن يــرثيهــا لســانــي ... بلفــظ ســالــك طُــرق الطعــام
مرضتُ وقد اكتلهتُ وخلتُ أنّي ... رضيــعٌ مــا بَلَغــتُ مَــدى الفِطَــام
فيــا ركــبَ المنــايــا أمَّــا رســولٌ ... يبلــغُ روحهــا أَرِجَ الســلام
أشــاعــت أبــاهــا وبكــت أخــاهــا ... فأضحت وهي (خنساء) الحمام
ســألــتُ متــى اللقــاءُ فقيــل حتــى ... يقــوم لهــا مــرون مــن الصّيــام

وهكذا من خلال هذا العرض الموجز، رأينا أن القرآن الكريم قد أوصى بالإحسان إلى الأم بصفتها إحدى الوالدين وكذلك أوصى الرسول الكريم بحسن صحبتها وقدمها على الاباء، كما أن الشعراء أبرزوا مكانة الأم ومنزلتها لدى أسرتها وأبنائها مما وثق وأرخ وسجل موروثاً غزيراً لكلِ ما صادفته الأمهات من التقدير والتوقير والاحترام والإعزاز والتكريم، للدور الذي تقوم به من التربية والإعداد للأبناء الذين سيصبحون أرباب أسر، مما يعبر عن طاعة لها وإحسان وبر بها أو تقرباً إلى الله سبحانه وتعالى ونوال مرضاته، فمهما قدم الابن لأمه يظل قاصراً عن رد فضائلها ومقصراً مهما فعل لها أو قدم، فلم يبق من اعتراف بفضلها سوى الإحسان إليها بالدعاء والرحمة لنوال رضى الله في الحياة الدنيا والاخرة، تنفيذاً لقوله عليه السلام: «**الجنة تحت أقدام الأمهات**»[2] وحتى تصل الأم إلى مثل هذه الدرجة وتحمل مثل هذا الوسام يجب أن تقوم بواجباتها نحو أولادها ورعايتهم

---

(١) ديوان أبي العلاء المعرّي (لزوم ما لا يلزم): ج٢، ص٣٩٥.

(٢) جواهر البخاري: ص٤٦٠.

بمسئولية وإخلاص في تربيتهم وتنشأتهم، وزرع مكارم الأخلاق في نفوسهم، وكل هذه الفضائِل منبثقة عن المبادئ الإسلامية السمحة والعقيدة الإيمانية، كما أن هذه العوامل هي خير سلاحٍ لوقاية المؤمن من الانحراف والانزلاق في هاوية الانحلال، ومقاومة كل الإغراءات التي يتفنن الغرب هذه الأيام للإيقاع بشباب المسلمين وفتنتهم عن دينهم، الذي هو عصمة أمرهم، وهنا يبرز دور الأم لخلق أبناء صالحين وخلق الأمة الصالحة، ورحم الله حافظ إبراهيم الذي اطلع على واقع الأبناء فأوصى بالاهتمام في إعداد الأم وسنظل نكرر هذه الوصية لتصل إلى جميع الأمهات والبنات، فقال:

الأم مـــدرســـةٌ إذا أعـــددتهـــا أعـــددتَ شعبـــاً طيـــب الأعـــراقِ

كما أن على الأبناء الاستجابة لمثل هذه الدعوة الخالصة من إرشاد الأمهات وتوجيههن للأبناء والتمييز بين ما هو غث وما هو سمين، حتى يكونوا في مأمن من الاغراءات والثقافات الهابطة التي تحوطهم من كل جانب ويلاقوا وجه الله وهو راضٍ عنهم بإذن الله.

* * *

مكانة الأطفال في الأسرة

حدّد العرب مراحل حياة الإنسان بالتوالي، وأعطوا لكل مرحلة صفة خاصة بها تغاير الصفة التي قبلها أو التي بعدها، كما أن السنة الشريفة حدّدت هذه المراحل والصفات، وأعطت لكل مرحلةٍ حكماً خاصاً بها، وتكليفاً دينياً يتناسب معها بشكل دقيق.

فالإنسان يمر على التوالي بالمراحل والمسميات الآتية: الطفل، والصبي، والغلام، والفتى، والشاب، والشيخ، والكهل، فالشيخ، فالشيخوخة تدل على صفة الوقار، أما الكهولة فتعني مرحلة الهرم، أما الشباب فهي مرحلة القوة، والفتوة فهي مرحلة الطيش واللهو، والغلام مرحلة مخالطة الرجال، أما الطفولة والصبا فهما معنيان لمرحلة واحدة تقريباً، وإن سبقت مرحلة الطفولة، فالطفل يُدعى صبياً منذ لحظة خروجه من بطن أمه إلى أن يحتلم[1]. حيث قال جل وعلا في سورة مريم: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩]. وقال تعالى في سورة الحج: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥]. وقال تعالى جل شأنه في سورة النور: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ [النور: ٥٩] صدق الله العظيم. وأخيراً قال الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم[2]:

إذا بلغَ الفِطام لنا صبيٌّ تَخِرُّ له الجبابرُ صاغرينا

لقد حظيَ الطفل من اهتمامات الكُتاب والأدباء على مر العصور، على أساس أنه المستقبل، وهو الأثير الحبيب عند والديه وأسرته، ويحتاج أكثر

---

(١) لسان العرب، مادة صبا وطفل.

(٢) معلّقة عمرو بن كلثوم، شرح المعلقات للزورني: ص١٢٢.

من غيره من أفراد الأسرة للعناية والرعاية، فرسموا المناهج ووضعوا الأسس والنظريات لتربية الأطفال، آخذين بعين الاعتبار مستواهم الفكري وقدراتهم العقلية، وكتبوا عن خصائِص الطفل وطبيعته وملاعبته، والنزول عند رغباته وكيفية معاملته، وإيصال المعلومة والمعرفة المناسبة مع عمره، وتعويده على فضائل الأخلاق الحميدة والعادات السليمة الصحيحة في مختلف المجالات، إذ أن الطفل يكون في هذا العمر صافي الذهن، خالياً من أية معكرات، وعقله مستعد للتلقي، وقد صدق رسول الله عليه السلام إذ قال: «**العلم في الصغر كالنقش في الحجر**» حديث مرفوع رواه أبو الدرداء، وعنه رواه البيهقي والطبراني، وكان الجاحظ من أبرز الكتاب الأدباء الذين خصصوا بعض كتاباتهم نثراً وشعراً للطفل، وبهذه المقولة يمكن اعتبار الجاحظ أول من خطط لأدب خاص بالأطفال يختلف عن أدب الكبار، لغة وأسلوباً ومعاملة، حين طلب النزول إلى مستوى عقل الطفل ولغته، والتغاضي عن تصرفاته ونتائج ألعابه، وقد تطابق هذا الكلام مع إنشاد الشاعر الذي يصف تصرف طفل يلهو باللعب في عصفورة يُمسكها بين يديه، ولم يدرك ما يسببه لها من ألم[1]:

كعصفورةٍ في كفّ طفلٍ يسومُها ورودَ حياضِ الموتِ والطّفلُ يلعبُ

وفي عصرنا الحاضر، زاد اهتمام الأدباء والكتاب بالطفل، فزخرت المكتبات بالدراسات عن الأطفال وتنوعت الكتب التي تبحث في خصائِص الطفل، حتى نشأ بما يعرف بأدب الطفل. إن هذا الاهتمام من الأدباء والكتاب، يأتي مواكباً لاتجاه الاهتمام بالأطفال، وإرسالهم منذ أيامهم الأولى إلى دور الحضانة، ثم إلى الرياض المدرسية، رغم ما فيها من السلبيات والإيجابيات المؤثرة على سلوك الطفل، لأنه كما قيل: (الطفل أبو

---

(١) التمثيل والمحاضرة: ص٢٢٠، عن كتاب الطفل: ص١٧.

الرجل)، فالاباء في العصر الحاضر مشغولون عن أبنائِهم في زحمة الحياة وكثرة متطلباتها، وخروج المرأة للعمل إلى جانب الرجل، وترك الأطفال في عُهدة غيرهم من المربين والخدم . . . الخ.

لهذا، سنأتي بنماذج نثرية وشعرية من الأدب العربي الجاهلي، والعصر الإسلامي الأموي، لإلقاء نقطة ضوء على ما كان يتمتع به الطفل من مكانة ومنزلة وإعزاز ومحبة وإثرة عند والديه وأسرته، فأولوه كل عناية ورعاية ومحبة، واهتموا بتربيته ونشأته، فقد قال السفاح يوماً لأحد بني أمية أفرج عنه من الحبس بعد استقرار الأمور، أخبرني عن أصعب ما لاقيته في الحبس، فقال على الفور: بُعدي عن أبنائي وأطفالي، وحرماني من الإشراف على تربيتهم وإرشادهم وتوجيههم، أرأيتَ كيف كان الابن موضع اهتمام أبيه، فلم تستطع عذابات الحبس أن تمنعه من التفكير به، خشية أن يكون فريسة للإهمال والانحراف أو التخلف والجهل.

ومن الصور التي تعبر عن مكانة الأطفال وإعزازهم عند آبائهم وأسرهم ولا بأس من تكراره في هذا المقام، ما عبرت عنه هذه المرأة وهي تُرقص طفلها في لحظة عطف صادقة وحب وتدليل ورحمة، فتقول وهي تشمه وتضمه[1]:

يا حبّذا ريحُ الوَلَد ... ريحُ الخُزامى في البلَدْ[2]
أهكذا كلُّ وَلَدْ ... أم لم يَلِد قبلي أحَدْ

وهذا الأب يقسم أنه لولا أولاده الصغار (حيث يصرح بذلك) فلن يقف بباب أحد يستجديه أو يمدحه أو يطلب منه مساعدة أو عمل، مهما كان موقفه الاجتماعي عالياً أو كبيراً فيقول[3]:

---

(١) محاضرات الأدباء: ج٢، ص١٢٢.
(٢) الخزامى: جنس نبات أنواعه عطرة.
(٣) محاضرات الأدباء: ج١، ص٣٢٢.

والله لـــولا صِبيـــةٌ صِغـــار وجـــوههـــم كـــأنّهـــا أقْمـــار
لمـــا رآنـــي مَلِـــكٌ جبّـــار ببـــابِـــهِ مـــا طَلَـــعَ النّهـــار

وأنشدَ الشاعر حطّان بن المعلى من قصيدة طويلة يقول فيها إن من أولى أولوياته رعاية بناته (ويبدو أنهن صغيرات) من قوله (كزغب القطا) لذلك كن سبب منعه من السفر والتجوال، فأقعَدنه عن الضرب في الأرض[1]:

لـــولا بُنيّـــات كـــزغـــب القطـــا حُطِطْـــنَ مـــن بعـــضٍ إلـــى بعـــضِ
لكـــان لـــي مضطـــربٌ واســـعٌ في الأرض ذاتِ الطولِ والعَرضِ

وشاعر آخر يتذرّع بطفولة ابنته، التي يستدعيه حبها وواجب رعايتها، أن يجوب الأرض في الليالي الحالكة طالباً الرزق من أجلها، حيث تأتي رعاية الأبناء الأطفال من أولويات الاهتمامات للأبوين، وتعبيراً عن مدى حبهم لهم أكثر من أنفسهم، خاصة إن كن بناتٍ صغيراتٍ، فلنستمع إليه كيف يعبر عن هذا الموقف الأبوي في إعزاز الابن لمكانته ومنزلته، بقوله[2]:

لـولا أميمـة لـم أجـزعْ مـن العَـدَمِ ولـم أجُبْ في الليالي حُنوس الظُّلَمِ[3]
وزادَني رغبةً في العيش معرفتي ذلّ اليتيمـة يَجفـوهـا ذوو الـرّحِـمِ

وهذا الشاعر الفارس أبو خالد القناني من الخوارج، قعد ولم ينفر مع زملائه خشيةً على بناته الصغيرات، ويبدو أنهن لازلن طفلات حيث يشير إليهن بكلمة (إنهن من الضعاف) فيقول معتذراً لقطري بن الفُجاءَة، حين عاتبه على قعوده عن الجهاد وأصبح من القَعَدة حيث يُعابُ الخارِجي بذلك،

---

(١) عيون الأخبار: ج٣، ص٩٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) حنوس: الظلام الشديد.

فرد عليه أنه لولا خشيته على بناته وصغرهن وطفولتهن فلن يقعد عن زملائِه[1]:

لقد زاد الحياة إلَيّ حبّاً ... بناتي إنّهن من الضِّعافِ
أحاذر أن يَرَيْنَ الفقر بعدي ... وأن يشربْنَ رَنْقاً بعد صافِ[2]
وأن يَعرَيْنَ إنْ كُسِيَ الجواري ... فتنبو العينُ عن كرمٍ عِجافِ

لقد اعتاد الصحابي الجليل عبد الله بن عمر، أن يصحب ابنه الطفل (سالم) معه إلى مجالسه، فلامه بعض أصحابه فقال منشداً معبراً عن منزلة هذا الطفل في قلبه كأجمل تعبير، لأنه أوجز المعنى الكثير في إيجاز قليل[3]:

يلومونَني في سالِمٍ وألومُهم ... وجلدةٌ بين العين والأنف سالِمُ

وهذا تابعي آخر هو الحسن البصري، يرقص طفله منشداً وهو في غمرة النشوة وقمة السعادة فيوسعه شماً وضماً:

يا حبذا أرواحه وَنَفَسُه ... وحبذا نسيمه وملمسُه
والله يُبقيه ويحرسُه ... حتى يجرّ ثوبَه ويلبَسُه

أما الشاعر الحطيئة، فلم يجد سبيلاً إلى قلب أمير المؤمنين وخليفتهم عمر بن الخطاب، يستثير عاطفته ليعفو عنه إلا عن طريق الحديث عن الأطفال، يستعطفه بهم ويشكو إليه ما آل إليه حالهم من بعده، وهو في سجن الخليفة العادل، الذي ألقاه فيه بسبب أنه ينال من أعراض المسلمين ويشتمهم في أشعاره، فأرسلَ إليه قصيدة أثارت عاطفة أمير المؤمنين الصلب الحازم، حين لم تنفع الوساطات، إلا هذه الأبيات البسيطة في ألفاظها

---

(١) أخبار الخوارج من كتاب الكامل في اللغة والأدب: ص٧.

(٢) العقد الفريد: ج٥، ص٤٣٧.

(٣) المصدر نفسه.

المؤثرة في معانيها، المثيرة للعاطفة والشفقة والحنو، ومما قاله الحطيئة يخاطب مشاعر الخليفة قوله عن أطفاله[1]:

ماذا تقول لأفراخٍ بذي مَرَخٍ ... زُغب الحواصِلِ لا ماءٌ لا شجرُ
ألفيتَ كاسبَهُم في قعر مظلمةٍ ... فاغفر عليكَ سلامُ الله يا عمرُ
وامنُن على صبيَةٍ في الرَّمل مسكنهم ... بين الأباطح تغشاهم بها القُرَرُ
أهلي فداؤُكَ كم بيني وبينهم ... من عَرض داويةٍ يَعمَى بها الخَبَرُ

وهكذا استطاع الحطيئة الأب ورب الأسرة ما لم يستطعه الحطيئة الشاعر، حين تحدث عن أطفاله وهم بعض أسرته طبعاً، وهو الذي لم يسلم أحد من العرب من شر لسانه، فقد قيل إنه هجا أمه وأباه ونفسه، لكنه عند أطفاله جاء بأرق الأشعار، وهو يودعها أحاسيسه ومشاعره التي بكى من تأثيرها عمر بن الخطاب، وهو يتصور ويتخيل صورتهم التي رسمها الحطيئة، فما كان منه إلا أن عفا عنه إكراماً لأطفاله، لأن رعايتهم واجبة على الأب ومن مسئوليته أمام الله سبحانه وتعالى، بعد أن أخذ عليه العهود بأن لا يهجو أحداً مرةً أخرى، وقيل إنه اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف دينار.

لقد صدق الله تعالى، حين قال عز وجل في القرآن الكريم مؤكداً تأثير الأطفال الصغار على الاباء، ومدى حرصهم على توفير العناية والاطمئنان على حياتهم من بعدهم: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]، والتعبير بالذرية الضعيفة إشارة إلى مرحلة الطفولة.

وهذا سيدنا وسيد البشر محمد عليه السلام، نراه يبكي طفله إبراهيم، متأثراً بطفولته التي أثارت الدمع في عينيه عليه السلام فانهمر منهما، فلما

---

(١) الأغاني: ج٢، ص١٨٨، ديوان الحطيئة: ص١٥٣.

رآهما عبد الرحمٰن بن عوف قال له: أوَ أنت يا رسول الله؟ فقال له: «**إنها الرحمة يا عبد الرحمٰن، فالعين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لَمحزونون**»[١].

الله الله يا أبا القاسم، لقد علمتنا أن للطفولة حق علينا نؤديها حناناً ورحمةً وعطفاً وشفقةً، وحسبك ما كنت تفعل مع أطفال علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله (الحسن والحسين) وما هما إلا من آل بيتك عليه السلام، وما كنت تقوم به من مداعبات نابعة من حب غامر بدافع الرحمة والحنان ولمكانتهما ومنزلتهما وإعزازهما، فقد كان الرسول عليه السلام يفعل ذلك ليكون فعله تعليماً للمسلمين، وتوجيهاً وإرشاداً في مجال رحمة الأطفال والعناية بتربيتهم وزرع مكارم الأخلاق في نفوسهم. وفي ذات يوم حضره الأقرع بن حابس التميمي وشاهده يلاعب الحسن ويقبله فقال له: إن لي عشرة من الأبناء ما قبلت أحداً منهم، فقال له الرسول عليه السلام: «**ما أصنع إذا كان الله قد نزع الرحمة من قلبك**»[٢]، ثم قال عليه السلام: «**ريحُ الولد من ريح الجنة، والأطفال رياحين الجنة**»[٣]. وقال عليه السلام: «**مَن لا يَرحَم لا يُرحَم**»[٤].

أما سيدنا يعقوب فإنه قد فقد بصره من كثرة بكائه على ولده يوسف، وأظنه كان طفلاً صغيراً بدليل أنه كان مستسلماً لأخوته ولم يستطع المقاومة أو الهروب منهم، حتى أظن أنه لم يكن يَدرِ ما يُحاك ضده حين ألقوه في الجُب، وقال الذي أخرجه من الجُب: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾ [يوسف: ١٩].

---

(١) صحيح البخاري: ج١، ص٤٣٩.

(٢) صحيح مسلم: ج٥، ص٢٢٣٥.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

إن طفولة يوسف ومنزلته عند أبيه، قد جعلت سيدنا يعقوب يستشعر ما ينتظره من النبوة والتخلق بأخلاقها، حين قص عليه يوسف رؤياه وأوصاه أن يخفي هذا الحلم عن أخوته، ولا يقصه عليهم مخافة حسدهم له فيقومون بإيذائه لصغر سنه، وتوجيهاً له بتوخي الحذر وأنه يمكن أن يتعرض لأحداث قادمة، فهذه الأحداث التي داهمت يوسف عليه السلام وهو لا زال صغيراً في عمره، هي التي زادت من محنة أبيه وخشيته عليه، ورفعت درجة حنوه وعطفه لعلمه بصغر سنه وعدم قدرته على حماية نفسه، ولكن الله هو الحامي وهو الحافظ لرسله وأنبيائه.

وهكذا قد صارت مكانة الأطفال وإعزازهم لدى آبائهم مصدر ضعف لهم ولأسرهم، وكذلك مصدر ضغط عليهم، فهم يضطرونهم أن يقفوا مواقفَ لولا الخشية على أطفالهم لم يقفوها، ويفعلوا أفعالاً لولا أطفالهم لم يفعلوها (وهذا أب طولب بمال فلم يسمح به، وعندما ضربوا طفله أمامه سمح به فعوتب بذلك، فقال ضُرب جلدي فصبرت وعندما ضُرب كبدي فلم أصبر)، صدق الرسول عليه السلام حيث قال: «**إنهم يُجبنون ويُبخلون**»، أي يجبرون آبائهم على البخل والجُبن خشية عليهم وعلى مصائرهم، فهذا أبو حكيم المري، يخشى على ابنه من الموت لئلا ينشأ صبيه أو طفله يتيماً بين الصبيان، فيقول والقلق بادٍ من قوله وتصرفه وفي كل كلمة يقولها[1]:

يقرّ بعيني وهو يُنقِصُ مُدَّتي ... مرورُ الليالي كَي يشبَّ حكيمُ

مخافة أن يغتالني الموتُ قبله ... فينشو مع الصِّبيانِ وهو يتيمُ

ويموت طفل للشاعر ابن الرومي فيحزن ويتألم على طفولة هذا الولد فيقول متفجعاً عليه وهو يحمله ويهدهده ليخفف عنه آلامه[2]:

---

(١) محاضرات الأدباء: ج٢، ص٣٢١.

(٢) ديوان ابن الرومي: ص٦٢٤.

لقد قَلَّ بين المهدِ واللَّحدِ لُبثُهُ فلَم يَنسَ عهدَ المَهدِ إذ ضُمَّ للّحدِ
وظلَّ على الأيدي تُساقِطُ نفسه ويذوي كما يذوي القضيبُ من الرَّندِ

ويقول التهامي من قصيدة مؤثرة في ابنه الطفل، ويكني عنه بالكوكب والهلال الذي لم يصبح بدراً، فيقول وفي قوله يبدو التفجع على هذا الطفل بادياً للعيان[1]:

يا كوكباً ما كان أقصر عُمره وكذلك عُمر الكواكب في الأسحار
وهلالَ أيامٍ مضَى ولم يستَدِرْ بدراً ولم يُمهَل لوقت سَرار[2]

وهذا العتبي الشاعر يموت ولده صغيراً، فيتفجع عليه فينشد متأثراً لطفولته فيشبهه بالرياحين[3]:

إن يكن ماتَ صغيراً فالأسى ليس صغير
كان رَيْحاني فأمسى وهو رَيحان القُبور
غرستُه في بساتين البلى أبدَ الدّهور

وهذا الأب الشاعر الحديث عمر بهاء الأميري، يستعرض مبتهجاً بما يفعله أطفاله ويقومون به من لعب ولهو وضجيج محبب إلى قلبه، فيقول منشداً وقد تأثر لابتعادهم عنه فيستذكر شقاوتهم[4]:

أين الضجيج العذْبُ والشَّغَبُ أينَ التدارُس شابه اللعبُ
أين الطفولة في توقّدها أين الدمى في الأرض والكتبُ
أين التباكي والتضاحُك في وقت معاً والحزن والطربُ
يتزاحمون على مُجالستي والقُربُ مني حيثُما انقلبوا

---

(١) ديوان التهامي: ص٤٦٧.
(٢) سرار: آخر ليلة من الشهر يختفي فيها القمر.
(٣) زهرة الآداب: ج٢، ص٧٩٧.
(٤) عن كتاب تربية الأبناء في الإسلام: ج١، ص٥٠.

فنشيدُهُم بابا إذا فرحوا ووعيدهم بابا إذا غضبوا
وهتافهم بابا إذا ابتعدوا ونَحيبهم بابا إذا اقتربوا
بالأمس كانوا ملء منزلنا واليوم ويحَ اليوم قد ذهبوا

ومع ذلك يظل انشاد الشعر في الأطفال صعباً على الشعراء لطفولتهم وعدم ظهور مزايا أو صفات كالفروسية أو الكرم أو المروءة التي تفتح قرائح الشعراء الاباء ويتغنون بها ويفتخرون على أقرانهم، ولا سبيل أمامهم سوى تشبيههم بالأقمار والأهلة كناية عن بداية حياتهم وبعضهم لم يصلوا إلى درجة البدور، ومنهم من أضفى عليهم صفة الرياحين الغضة الطرية، ولأن للرياحين رائحة زكية تنشي القلب وتؤنس النفس والعين وعمرها قصير كذلك، ويظل أطفالنا كما قال عنهم أحمد شوقي أمير الشعراء في العصر الحديث[1]:

البنون هم دَمُنا والحياة والوُرُدْ[2]
يستوون واحدهم في الحنان والعدد
جُرحهم إذا انتُزِعوا لا تلمُّه الضُّمدْ

وأخيراً، فلعل وعسى أن تكون هذه النماذج وهي غيض من فيض، التي تصور ما كان يكنه الاباء لأطفالهم من حب وإعزاز، إذ يتمتع الأطفال بمحبة واهتمام ورعاية الاباء في جميع مراحل أعمارهم إلى أن يكبروا ويشبوا، ويواصل الاباء البذل والعناية والرعاية والتربية والتعليم وغرس مكارم الأخلاق والرحمة والعطف والحنان في قلوبهم والشفقة، حتى يشب الطفل ويصبح رجل الغد وهو متكامل العلم والتربية مُسلح بالأخلاق الفاضلة والتناسُق النفسي والذهني، ليكون عنصراً نافعاً وصالحاً في مجتمعه وحسن

---

(١) ديوان شوقي، الشوقيات: ج٢، ص٥٩.
(٢) الوُرُدْ: جمع وريد.

السلوك والتصرف والمعاملة، حميد الصفات والخصال والفعال، أملاً أن تكون هذه النبذة الموجزة المختصرة، نقطة ضوء تكشف للاباء والأمهات والأسر في العصر الحاضر، وتذكرهم ما كان عليه الاباء والأجداد، فيولون أطفالهم العناية والرعاية التي يستحقونها ولا يهملوهم ليكونوا نهباً للانحرافات والغرق في مستنقعات الحضارات الغربية الإباحية اللا أخلاقية من دون ضبط وانضباط، وهذه دعوة للاباء في هذا العصر ليتولوا مسئولياتهم للاقتداء بالسلف الصالح الذي وضع نهج الرسول عليه السلام وسنته الشريفة نبراساً واقتداءً وهداية. في سبيل خلق جيل يقف شامخاً أمام كل الإغراءات ومواجهة الانحرافات.

فالأطفال ما زالت أجسامهم غضة طرية وعقولهم متفتحة وأفكارهم نقية بريئة، يأخذون ما يصل إليهم من تلقين أو تدريب أو تعويد، فهم كما قال معلمنا ومرشدنا عنهم رسول الله ﷺ: «**وما مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يمجسّانه أو ينصّرانه أو يهوّدانه**»[1] لأن الأولاد ما زالوا تحت تأثير التلقي، والوالدان هما من أقرب الناس إليهم، والأم هي الأقرب والألصق من الأب لأنها هي التي تحمل وهي التي تضع وهي التي تلقن وتربي وترضع، والأساس فإن رعاية الأطفال من مسئولية الأبوين، وإن كانت الأم تتحمل الجزء الأكبر من المسئولية كما جاء في حديث رسول الله عليه السلام: «**كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته، فالرجل راع في أسرته، والأم راعية في بيت زوجها**»، فلنعمل على أن نُحسن اختيار زوجاتنا من ذوات الدين اللاتي هن أمهات أطفالنا لتلقينهم مبادى إسلامنا السمحة والتحلي بمكارم الأخلاق الفاضلة، التي حثت عليها السنة الشريفة بقوله عليه السلام: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»، ونسلحهم بسلاح الإيمان والعقيدة الراسخة مع كل قطرة لبن يرضعها من ثدي أمه، تلك عوامل قوية جداً لمقاومة

---

(١) صحيح البخاري: ج١، ص٤٥١، وصحيح مسلم: ج٥، ص٣٣.

الانحراف خاصة في هذا العصر الذي يتعرض فيه المسلمون إلى شتى أنواع الغزو الثقافي والديني والأخلاقي، ونسلح أطفالنا بأسلحة قوية من الإيمان والأخلاق لمقاومة الأباطيل والأضاليل التي يراد بها غسل عقول أبناء المسلمين وأطفالهم لإبعادهم عن دينهم الذي هو عصمة أمرهم، ورحم الله الشاعر الذي يقول:

وليس النبتُ ينبتُ في جنانٍ كمِثلِ النَّبتِ ينبتُ في الفلاةِ
وهل يُرجى لأطفالٍ كمالٌ إذا ارتضعوا من ثديّ الناقصاتِ

* * *

مكانة الأبناء في الأسرة

لا شك أن للأبناء مكانة راسخة بين أفراد الأسرة وتعاضدها، ولهم الأثر الأكبر في تماسكها وترابطها، بسبب منزلتهم عند آبائهم، ولهم محبة خاصة، فطرها الله سبحانه وتعالى في قلوب عباده من الآباء لحكمة بليغة، أرادها لعمارة الكون الذي خلق، فالأبناء زينة الحياة الدنيا، وقرة العين، وثمرات الأفئدة، وفلذات الأكباد، وحبات القلوب، يعمرون قلوب آبائهم وأمهاتهم بالحب الكبير الصادق، الفياض بالعطف والحنان، الذي لا ينضب معينه من الرحمة والرأفة التي تملك على الآباء أنفسهم وقلوبهم، فالأبناء رياحين الجنة كما يقول عنهم رسول الله ﷺ، وقيل إن ابنَك ريحانتكَ سبعاً ثم حاجبكَ سبعاً ثم عدو أو صديق، وقال عنهم عليه السلام، محبباً فيهم: «**صغارهم دعاميص الجنة**»، فالأبناء هم الدعائم القوية للأسرة، ويقول عليه السلام: «**الرجال شقائِق النساء**». فالأبناء تطلق على الذكور والإناث.

وينشدُ الشاعر جرير وهو يُرقص ابنه مرتجزاً[1]:

يُشفي الصداعَ ريحُهُ وشمُّهُ ... كأن ريحَ المِسكِ مُستَحَمُّه

ويُذهِبُ الغَليل عني ضمّه ... يَقضي الأمورَ وهو سام هَمُّه

فآلُهُ آلي، وسمِّي سمُّه

والآباء يبذلون من عواطفهم ومن أنفسهم وأرواحهم وأموالهم، فالأم تحمل، والأم تضع، والأم ترعى وتربي، والأب يسعى ويبذل، والأب يواجه الصعاب والمخاطر طلباً للرزق، ثم الأب يؤثر على نفسه، ويقدم

---

(١) ديوان جرير: ص٥٣٣.

لأبنائه كل ما لديه من معنويات وعواطف على طبق لحمته الرحمة وسداه الحنان، تغلفه المحبة والعطف.

بهذا المعنى، يبثنا الشاعر أمية بن أبي الصلت خواطره ومشاعره تجاه ولده، فإذا نظرنا فيها نجدها نفسها خواطر ومشاعر كل الاباء، في كل زمان ومكان، وهو في هذه الأبيات من القصيدة، التي نظمها في عتاب ولده الذي رأى منه عقوقاً وجفاءً نراه يخاطبه بأسىً ظاهر[1]:

فلمّا بلغت السنّ والغاية التي ... إليها مدى ما كنتُ فيكَ أؤمل
جعلت جزائي منك صَدّاً وغِلْظةً ... كأنك أنت المنعم المتفضّل
فليتك إذا لم ترعَ حقّ أبوّتي ... فَعَلْتَ كما الجارُ المجاور يفعلُ

كما أن في تجربة فاطمة بنت الخشرب مع البنين، دلالة واضحة على تمكن حب هذه الأم لأبنائها الأربعة وإعزازهم، فأغدقت عليهم من حنانها وعطفها، وأولتهم حسن رعايتها وإعدادها وتربيتها، إلى أن تخرجوا في مدرستها، مدرسة الأمومة الواعية المدركة لوظيفتها ومسئوليتها كامرأة وأم تجاه أسرتها، وبناء الولد الصالح القوي القائِم على أسس من الأخلاق الحميدة والتعاضُد والتماسُك والتراحم حتى صاروا سادةً وقادة، وقد حاز كل منهم صفة عرف بها بين الناس، فمنهم الربيع (الكامل) وأنس (أنس الفوارس) وعمارة (الواهب) وقيس (الحافظ)[2].

سُئِلَت هذه المرأة في يوم عن أي أولادها أحب إليها فقالت: قيس، لا بل الربيع، لا بل أنس، لا بل عمارة. ثم تستدرك وتقول: وعيشي لم أدري، إنهم كالحلقة المفرغة، لا يعرف طرفاها، ثم تقول: أما والله ما حملت واحداً تضعاً، ولا ولدته يَتَناً، ولا أرضعته غَيلاً، ولا أبتهُ على

---

(١) أمية بن أبي الصلت، شعره وأخباره، طبقات الشعراء: ص٥٦١.
(٢) الأغاني: ج١٧، ص١١٧.

ماقة[1]. إن أبناءً ينشأون برعاية مِثل هذه الأم، وتقوم على تربيتهم طبقاً لمنهج محدد فكأنه يراد منه لتحقيق هدف محدد، لابد أن يسودوا ويبلغوا قمم المجد.

ويجيب هذا الأب سائلاً سأله عن أحب أولاده إليه، فيقول: «صغيرهم حتى يكبر، ومريضهم حتى يشفى، وغائبهم حتى يحضر». إنه يحبهم جميعهم، وفي مختلف مواقعهم وأحوالهم وصفاتهم خاصة وأنهم أفراد أسرة واحدة يسودها الحب والرحمة، حيث إن لكل ابنٍ مكانة لا يعوضه عنها ابنٌ آخر، كما يقول ابن الرومي، موضحاً هذه النظرية بالأمثلة الواقعية حيث يُنشد[2]:

وأولادُنا مثلُ الجوارحِ أيّها ... فقدناه، كان الفاجعَ البيِّنَ الفَقْدِ
هل العين بعد السَّمع تكفي مكانهُ ... أم السَّمعُ بعد العَينِ يَهدي كما تَهدي

حقاً إن الأبناءَ ثَمراتُ الأفئدَة، وفلذات الأكباد، وحبات القلوب، فابن عبد ربه ينشد مقطوعة في رثاء الابن، وكأنه يعزف لحناً على قيثارة حزينة فيقول[3]:

واكبداً قد قطَّعَتْ كبدي ... وحرَّقتها لواعجُ الكَمَدِ
ما ماتَ حَيٌّ لِميِّتٍ أَسَفاً ... أعذر مِن والدٍ على وَلَدِ

ويستمر في إنشاده على نفس النوتة فيقول:

ولي كَبِدٌ مشطورةٌ بيدِ الأسَى ... فَتَحتَ الثرى شَطرٌ وفوقَ الَّثرى شَطرُ
أفَرخُ جِنان الخُلدِ طِرْتَ بِمهجتي ... وليس سوى قَعْر الضَّريحِ له وَكْرُ

---

(١) التَضع: الذل.
اليتن: خروج رِجل المولود قبل رأسه.
الغيل: الرضاعة مع الحمل.
الماقة: البكاء.

(٢) ديوان ابن الرومي: ص٦٢٤.

(٣) العقد الفريد: ج٣، ص٢٥٠.

أما الشاعر حطان بن المعلى فينشد باسم جميع الآباء[1]:

وإنَّما أولادنا بينَنا ... أكبادُنا تَمشي على الأرضِ
لو هبَّت الريحُ على بعضهم ... لامتَنَعَت عَيني عن الغَمْضِ

ويتنافسُ الأبوَان على حب الولد، ويعبر كل منهما على مدى تمكن حبه من قلبه، والتصاقه وقربه منه، بما يتفق وخصائصه التي فطرها الله سبحانه وتعالى عليها، فقد روي أن أبا الأسود الدؤلي تنازعَ مع زوجته على حضانة ولد لهما، فرفع الأمر إلى والي البصرة (زياد) فقالت المرأة: أصلحكَ الله أيها الأمير، هذا ابني كان بطني وعاؤه، وصدري سقاؤه، وحجري فناؤه، أكلؤه إذا نام، وأحفظه إذا قام، فلم أزل بذلك سبعة أعوام، فإذا ما استقوى فصاله وكملت خصاله، واستوكفت أوصاله، وأمَلتُ نفعه، أراد أن يأخذه مني كرهاً، فإنه رام قهري وأرادَ قسري. فقام أبو الأسود وقال: أصلحك الله أيها الأمير، هذا ابني حملته قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه، وأنا أَقوَمُ على تأديبه، وأَنظَرُ في تقويم أوده، فامنحه علمي حتى يكمل عقله ويتمكن فتله. فعقبت المرأة بقولها: لقد حمله خُفا، وحملته ثِقلاً، ووضَعه شَهوَةً ووضعتُه كُرهاً، فقال له الأمير: أردد على المرأة ولدها ودعني من سجعك[2]، وبهذا الحكم أنهى الأمير زياد التنافس الأسري على حضانة الولد، إذ أن كل من قُطبَي الأسرة يدعي أنه الأقدر على ذلك.

هكذا تربع الأبناء في أعماق قلوب آبائهم، واحتلوا الحشاشة من أكبادهم، سواء كانوا شجعاناً أو جبناء، مرضى كانوا أم أصحاء، فقراء أم أغنياء، حتى قيل:

حبّ الابن يعلو كلّ حب

---

(١) عيون الأخبار: ج٣، ص٩٣.
(٢) الأمالي للقالي: ج٢، ص١٢.

أما أبو بكره فيقول عن فقد الابن:

(وفقده صدع في الفؤاد لا يجبر)[1].

هذه أم وضعت ولداً ذكراً ففرحت به، وأفاضت عليه من حنان قلبها وعطفها وحبها ما لم تغدقه على أحد غيره، فإنه الوحيد الذي تراه عيونها من كل هذه الدنيا، فيرنو إليه قلبها، وتصبو إليه روحها ونفسها ورقة شعورها وإحساسها، فأنشدت وهي ترقصه[2]:

يـــا حبّـــذا ريـــحُ الـــولَـــد ريـــحُ الخُـــزامـــى فـــي البَلَـــدْ
أهكـــــذا كُـــــلُّ ولَـــــدْ أَم لـــم يلِـــد قبلـــي أحَـــدْ

كما كان الزبير بن العوام يرقص ولده ويقول مرتجزاً[3]:

أزهَـــرُ مِـــن آل بنـــي عَتيـــق مبـــاركٌ مِـــن ولـــد الصـــدِّيـــق
ألـــذُّه كمـــا ألـــذُّ ريقـــي

وكما أن الولد حبيب، فإنه غالٍ عند والده كذلك، ولنستمع إلى ابن عبد ربه ينشد صادقاً في عاطفته وتجربته ومعاناته وتعبيره عن مكانة الولد في قلب الوالد[4]:

لو كنت أُعطى به الدُّنيا معاوضةً عنه، لما كانت الدُّنيا له ثَمَناً

وتأكيداً لمقولة: حب الابن يعلو كل حب، ولا يعلوه حب آخر، فقد عبر ابن عبد ربه أيضاً عن شعوره الصادق نحو ابنه، بما يدلنا على مدى ما يكنه هذا الأب من صدق العاطفة والإعزاز والحب والحنان المختزن في أعماق مكنونات نفسه وقلبه، فنراه يفيض منها على ولده بقوله[5]:

---

(١) عيون الأخبار: ج٣، ص٩٣.
(٢) المستطرف في كل مستظرف: ج٢، ص١١.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) العقد الفريد: ج٢، ص٤٣٧.
(٥) المصدر نفسه.

يا أطيب الناس روحاً ضمَّه بَدَنٌ استودع الله ذاك الرّوح والبَدَنا
يا سيِّدي ومَراح الرّوح في جَسَدي هلاّ دنا الموت منّي حين منك دَنا

ويدافع عبد الله بن عمر بن الخطاب عن نفسه، ويرد على لائميه لمبالغته في حب ولده (سالم) فيقول بعاطفة أبوية صادقة الإحساس والشعور، تعبر عن مكانة الولد الحقيقية في قلبه[1]:

يلومونَني في (سالمٍ) وألومُهم فجلدةٌ بين العين والأنف (سالمُ)

ويصرخ أبو زحنة في وجه زوجته، عندما حاولت أن تبعده عن ولده (زحنة) بتلفيق التهم إليه، فيهب الأب ينهرها ويحذرها بشدة إذا تعرضت لولده، محدداً لها مكانته ومنزلته منه بقوله[2]:

أ (زِحنَةَ) عني تطردين، تبدَّدَت بلحمكِ طيرٌ، طِرنَ كلَّ مَطير
فإنّي وإياه كرِجلَي نعامة على كلّ حالٍ مِن غِنَى وفقير

والمعروف أنه ليس شيء من البهائم، إلا وهو إذا انكسرت إحدى رجليه انتفع بالأخرى إلا النعامة، إذا فقدت إحدى رجليها بَرَكت، فكان هذا الأب دقيقاً في وصفه وإحساسه وعاطفته.

وتعرض هذه الأم وجهة نظرها، لتكشف لنا عن المدى الذي وصل إليه حب الولد، وتفوقه على كل ما عداه فتنشد بعد أن رحل عنها[3]:

كَنتَ السَّوادَ لِمُقلَتِي فَعَمى عليكَ الناظِرُ
مَن شاء بعدكَ فليَمُت فعليكَ كنتُ أُحاذِرُ

ولا شك أن الأحنفَ بن قيس قد جال بفكره وعقله، مستنطقاً عواطفه وأحاسيسه ومشاعره الأبوية التي تدل على العطف والحنان والرحمة، قبل أن

---

(١) العقد الفريد: ج٢، ص٤٣٧.
(٢) الأمالي للقالي: ج٢، ص١٨٨.
(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب: ج٥، ص١٦٣.

يجيب معاوية بن أبي سفيان، عندما سأله عن الأولاد، وكان يجلسُ بين يديه ولده يزيد بن معاوية، حيث نالت إجابته الاستحسان البالغ من معاوية عندما قال: (يا أمير المؤمنين، الأولاد عماد ظهورنا، وثمرة قلوبنا، بهم نصول على أعدائنا، ونحمي ذمارنا، وهم الخَلَف لما بعدنا، فكن لهم أرضاً ذليلة، وسماءً ظليلة، وإن سألوك فأعطهم، وإن استعانوك فأعِنهم، فقال معاوية: لله درك يا أبا بحر). وفعلاً لله دره لأنه وضع اصبعه على ما يأمله الاباء من الأبناء.

وبدافع هذا الحب الصادق، والعطف والحنان والرحمة الذي يملأ قلب الأب، يقول الشاعر في ولده عامر:

لو أستطيع جعلتُ مني (عامراً) بينَ الضّلوع، وكلُّ شيءٍ فان

يجدد ابن الرومي تأكيده على حب ولده، وإعزازه وقرب مكانته من قلبه ونفسه، يعبر عنها بسيل من العواطف المؤثرة الصادقة، والأحاسيس والمشاعر النابضة بالحنان والحب، الذي لا يعلوه حب آخر، إذ يقول[1]:

أَرَيحانَة العينين والأنف والحشَا

ألا ليتَ شِعري، هل تغيَّرتَ عن عهدي

سأسقيك ماءَ العينين ما أُسعِدتَ به

وإن كانت السُّقْيا من الدمع لا تُجدي

وتأكيداً لمقولة: (فقد الولد، صدع في الفؤاد لا يُجبر) نرى أن الشاعر العتبي، الذي اكتوى بنار فقد الأبناء، قد خاض التجربة والمعاناة الحقيقية، فذاق مرارتها، وتفجع قلبه، وفؤاده من هولها، فنراه يصدر حكماً يعممه على جميع الاباء بقوله[2]:

---

(١) ديوان ابن الرومي: ص٦٢٤.

(٢) الكامل للمبرد: ج١، ص٢٥.

ما عالج الحُزنَ والحرارةَ في الأحشاء مَن لم يَمُت له وَلَدُ
فكل حزنٍ يَبلى على قِدَم الدهر وحُزني يُجِده الأبَدُ

ويجاريه ابن عبد ربه في الحزن والتأثر الشديد لفقد الولد ينم عن إعزاز وحب لا يعلوه حب آخر، إذ يقول[1]:

ما ماتَ حيٌّ لِمَيِّتٍ أسَفاً أعذر من والِدٍ على ولدِ

وبنظرة فاحصة في قول الشاعر أبي تمام، نجد صدق المقولة إذ تستجيب معها جميع عواطف الأب وأحاسيسه ومشاعره وتفاعلها مع حدث فَقدِ الولد، فيقول ما يؤكد إعزاز الولد ومكانته اللصيقة من قلب أبيه وحبه إياه، كيف لا وهو قطعة من كبده وجزء من نفسه[2]:

لم يَبْقَ من بَدَنِي جزءٌ علمتُ به إلا وقد حلهُ جزءٌ من الحَزَنِ
كان اللحاق به أهنا وأحنى بي منْ أن أعيشَ سقيمَ الرّوحِ والبَدَنِ

والشاعرة الحارثية تفقد أعصابها من هول ما أصابها في ابنيها الدرتين، بل هما أغلى ما تملكه، فهما أغلى من سمعها وبصرها. كيف لا وهي الأم الرؤوم التي تملك قلباً يفيض عطفاً وحناناً ورحمةً على الأبناء الأعزاء عليها فتقول مولولة[3]:

يا مَن أحس بُنيّي اللذين هما
مُخّ العظامِ فمخّي اليوم مزدهفْ
يا مَن أحس بُنَيّي اللذين هُما
سمعي، وطَرْفي، فطَرْفي اليوم مختطف
يا مَن أحس بُنيّي اللذين هُما
كالدرّتين، تشظى عنهما الصَّدَفْ

---

(١) العقد الفريد: ج٣، ص٢٥٠.
(٢) ديوان أبي تمام.
(٣) الأغاني للأصفهاني: ج٤، ص٢١١، الكامل للمبرّد: ج٤، ص٢٦.

لقد عزز القرآن الكريم هذه المكانة اللصيقة، والإعزاز الراسخ في القلوب، بفعل فطرة الله التي فطر عباده عليها، وعمقها في قلوب الاباء في آيات عديدة، فتارة يصفهم بزينة الحياة الدنيا، كما جاء في سورة الكهف: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا . . .﴾ [الكهف: ٤٦] كما اعتبر قدومهم بُشرى يفرح لها الأب في آيات أُخر، فعندما أراد رب العالمين الذرية لسيدنا إبراهيم عليه السلام إبقاءً على تماسُك الأسرة وقد جعلها الله بُشرى له ولزوجته سارة، فقال جل وعلا: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١] كذلك الأمر مع سيدنا زكريا عليه السلام، إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [مريم: ٧]. والسيارة التي التقطت سيدنا يوسف عليه السلام من الجبّ: ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ [يوسف: ١٩]. والله سبحانه وتعالى أدرى بالذي يفرح الإنسان ويسره، وتقر به عينه ويسعد به فؤاده، وهو الذي خلقه من قبل وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير.

روى صاحب المستطرف، أن عامراً قال لامرأته، أمامة بنت الحكيم الخزاعية، ولم يكن عنده ولده، وإن ولدت غلاماً، فلك حكمك، فلما ولدته ذكراً قالت له: حكمي أن تطعم سبعة أيام، في كل يوم ألف خوان من فالوذج، وأن تعق بألف شاة، ففعل لها ذلك، احتفاء بقدوم الولد وتعبيراً عن حبه ومعزته ومكانته لديه ووفاء لأم ولده شريكة حياته وراعية أسرته.

وهكذا تبين لنا أن الأب يختزن في قلبه فيضاً من الحب والحزن في آن واحد، يفيض من حبه على ولده وهو في حضرته، ويفيض من حزنه عليه في غيبته، ولله در أمير الشعراء في العصر الحديث، إذ يقول من قصيدة له بهذا المعنى(١):

فِتنَـــــــةٌ إذا صلحـــــــوا   مِحنَـــــــةٌ إذا فســـــــدوا
شـــــاغِـــــلٌ إذا مَـــــرضـــــوا   فـــــاجِـــــعٌ إذا فُقِـــــدوا

---

(١) ديوان أحمد شوقي، الشوقيات: ج٢، ص٥٩.

فإن غاب الولد في سفر، أو ابتعد عن ناظر والديه، تهيج نار الشوق، وتشتعل الذكرى في فؤاد والده ونفسه، وتهب رياح الحنين والعطف بين الضلوع، وتثور غرائز الحنان والرحمة المختزنة في أعماقهم. ولنستمع إلى هذا الشاعر يكشف لنا عن مشاعره تجاه الولد بقوله[1]:

لو كان يدري الابن أية غُصَّةٍ ... يتجرَّعُ الأبوَانِ عند فراقه
لَرَثى لأم سُلَّ من أحشائِها ... وبكى لشيخ هامَ في آفاقه
ولبذل الخُلق الأبيَّ بعطفه ... وجزاهما بالعطف من أخلاقِه

وأب آخر هو عمر بهاء الأميري غاب عنه أولاده، فيحن لهم في لحظة يتذكر فيها طفولتهم التي تشكل سعادة أسرتهم بهم، وما كانوا يثيرونه من ضجيج وشغب في أوقات لهوهم يملأ عليه البيت والمكان فتسيطر على نفسه وروحه في غيابهم عاطفة الأبوة الصادقة، فيدخل في معاناة نفسية شديدة، فينشد الشاعر عمر بهاء الأميري منطلقاً على سجيته وفطرته معبراً عن أثر الفراغ الذي تركوه في نفسه[2]:

بالأمسِ كانوا مِلءَ مَنزِلنا ... واليومَ، وَيْحَ اليوم قد ذهَبوا
هيهاتَ، ما كلُّ البُكاءِ خَوَر ... إنّي، وبي عَزمُ الرِّجالِ أبُ

وبسب هذه المكانة والإعزاز الأسري للولد، وتعلق الاباء بأولادهم، إذ لا حب لديهم يعلو على حبهم، وتصدع أنفسهم وأكبادهم حسرة إذا فارقوهم، فقد استخدموا كوسيلة ابتزاز ضدهم، وذلك لابتزاز الأموال أو المعلومات وكل ما يمتنع الأب عن البوح به عموماً، لكنه عندما يرى ابنه معرضاً للأذى، فحينها تهون الدنيا عليه، وترخص أغلى الأشياء لديه، فيسارع لمنع الأذى ورد الضرر عن ولده. وقد مر معنا كيف أن رجلاً باح

---

(١) عن كتاب تربية الأولاد في الإسلام: ج١، ص٥٠.

(٢) المصدر نفسه.

بسره وكشف عن أمره، فعوتب بذلك، فقال: «لقد ضُربَ جِلدي فصبرت، فضُرِبَ كبدي فجزعت»[1]، يقصد بكبدي أي ولدي.

وتعرض السموأل لمثل هذا الموقف، عندما شُق ولده بالسيف نصفين، لرفضه تسليم أدرعاً أودعها لديه امرؤ القيس. ويعجب الشاعر الهذلي أبو كبير لحمام الإيك الذي ينوح بينما يقف قرب عشه وفراخه، وكأنه قد أُحِلَ النواح في حالةِ فراق الولد فقط، فيقول:

ألا يا حَمامَ الايك فرخُكَ حاضِرٌ وغُصنُكَ مَيَّادٌ، ففيمَ تَنوحُ؟

ومع الفطرة الغريزية التي فطرها الله في قلوب عباده لحب الأبناء، فإنهم يطلبونهم للمصلحة الذاتية كذلك، فبإنجاب الأبناء يطمئن الأب على أبوته ورجولته وممارستها، فكلمة بابا لها أكبر الأثر النفسي لديه، لضمان استمراريته في الحياة الدنيا وتواصله معها بخلف يخلفه، ثم يورثه ماله وتلاده الأسري. وقد جاء في القرآن الكريم على لسان سيدنا زكريا عليه السلام قوله: ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ [مريم: ٥-٦]. ووجود الابن في شيخوخة الأب له أكبر الأثر النفسي والراحة النفسية للأب ليطمئن بوجود مساعدٍ ومعينٍ يقوم على دفنه كما كان يؤمل أبو حكيم المري[2]:

وكنتُ أُرجِّي من حكيمٍ قيامُه عَليّ إذا ما النَّعشُ زالَ ارتدائيا
فقُدِّم قبلي نعشُه فارتديته فيا ويح نفسي من رداءٍ علانيا

وهذا الشاعر الثقفي يشكو قلة العضد، والابن في مقدمة الأعضاد، فيقول والاستكانة والشعور بالضعف يجلل نفسه ويحز في قلبه وفؤاده لعدم وجود ولد بقربه[3]:

---

(١) محاضرات الأدباء: ج١، ص١٥٥.

(٢) محاضرات الأدباء: ج١، ص٣٢١.

(٣) العقد الفريد: ج٢، ص٤٤١، طبقات الشعراء: ص٥٦١.

من كانَ ذا عَضُدٍ يُدْرِك ظلامتَه إنّ الذَّليل الذي ليست له عَضُدُ
تنبو يداه إذا ما قَلّ ناصِرُه ويأنَفُ الضيم إن أثرِيَ له عَدَدُ

وشاعر آخر يشكو قلة الولد، الذي باعتباره ردءاً لوالده ومتكأ له وناصراً، حيث يصرح صاحب التجربة والمعاناة، أن الناس يحتقرونه لقلة مناصريه من الأولاد الأعضاد، فيقول:

يُضَعِّفُ حِلمي وكثرة جَهلِهم عليَّ، أنّي لا أصول بِجاهِلِ

أما هذا الشاعر، فإنه لم ينجب أولاداً، فيعلل ذلك لمن جاء يلومه على عدم الزواج والإنجاب بقوله[1]:

قالوا عقيمٌ ولم يولد له ولد والمرءُ يَخلِفُهُ مِن بعده الولَدُ
فقلتُ مَن عَلِقَتْ بالحرب هِمَّتُهُ عافَ النساءَ ولم يكثر له عَدَدُ

أما إذا ما أثري للرجل في عدد الأولاد وتنامى، فإن الأسرة تشعر بالسعادة والتماسُك والتعاضُد، كما أن الشاعر الأب يشعر بالفخر والاعتزاز، وربما بالغ في ذلك فيتحدى كل الناس بكثرة أبناء أسرته وقبيلته وشجاعتهم، كقول الشاعر الجاهلي:

حُديَّا الناس كلّهم جَميعاً مُقارعةً بنيهم من بَنينا

وجاء في القرآن الكريم قوله عز وجل ـ في وصف الحياة الدنيا ـ: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ [الحديد: ٢٠] صدق الله العظيم.

وافتخر الفرزدق بأولاده، فرسم لنا صورة له تضمه مع أولاده وهم يسيرون من حوله، فيضعها في إطار من الكبرياء والزهو بالنفس، ويملأ

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف: ج٢، ص١١، ديوان الحماسة للتبريزي: ج٢، ص٩٥.

السرور قلبه وتبتهج نفسه وهو ينظر لأولاده يسيرون من حوله في منظر ينم عن معاضدةٍ وتَماسُك وترابط، فيقول[1]:

هِـزَبـرٌ إذا أشبـالـه سِـرنَ حـولـه تشظَّت سباع الأرضِ مِن ذي النَّحائِم

ومن الأبناء من صنع مجداً لأسرته وعشيرته وكذلك لابائه وأجداده، وأكسبهم شرفاً رفيعاً، فابن الرومي يقول بهذا المعنى[2]:

وكم أبٍ قَد علا بابنٍ ذُرى شرفٍ كمـا علَـت بـرسـول الله عـدنـانُ
يسمـو الـرّجـال بـآبـاءٍ وآونـةٍ تسمـو الـرّجـالُ بـأبنـاءٍ وتـزدانُ

وبعض الآباء نقم على الموت ـ في لحظة حزن ـ فاعتبره سارقاً ومشتتاً لشمل الأحباب، كونه سبباً لمعاناتهم، واكتوائهم بنار الفراق. لقد كانت هذه وجهة نظر الشاعر المعروف المتنبي في معرض رثائه لأحد أبناء سيف الدولة، الذي خطفه الموت في عز الشباب فقال[3]:

ما الموتُ إلا سارقٌ دَقَّ شخصُهُ يصولُ بِلا كفٍّ ويسعَى بلا رجلِ
وما الدَّهرُ أهلٌ أن تؤمَّلَ عندَهُ حياةٌ، وأن يُشتاق فيه إلى النَّسلِ
وقد ذُقتُ حَلواءَ البنين على الصِّبا فلا تحسَبني قلتُ ما قلتُ عن جَهلِ

أما الشاعر أرطأةُ بن زفر، فقد لفه الحزن، ونخر قلبه الألم عندما فقد ولده، وتركه في حالة استسلام واستكانة ورضوخ لحكم الدهر، فلم يعتب على أحد، ولم يحمله أدنى مسئولية رغم إحساسنا بالألم الذي يعتصر قلبه، والحسرة التي تنبعث من ثنايا كلماته وتكراره لعجز بيتين كاملين، فيقول:

فَدَعْ ذكرَ مَن حالت الأرضُ دونه وفي غير مَن قد وارَت الأرضُ فاطْمَعِ
عن الدهر فاصفَحْ إنّه غير مُعتَبٍ وفي غيرِ مَن قد وارَت الأرضُ فاطمَعِ

---

(١) ديوان الفرزدق: ج٢، ص٢٠٦، التعازي والمراثي: ص١٧٣.

(٢) ديوان المتنبي: ص٢٨٠.

(٣) المصدر نفسه.

وهكذا وجدَ الأبناء لدى أسرهم الحب والرحمة ونهلوا من قلوب آبائهم العطف والحنان ووجدوا منهم كل إعزاز، فتربعوا على عرش قلوبهم واحتلوا الحشاشة من نفوسهم وأرواحهم، فأجبنوهم وأبخلوهم وآثروهم على أنفسهم، ففرحوا بهم قريبين، وحزنوا عليهم بعيدين، وقال تعالى فيهم: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ١-٤] صدق الله العظيم.

ومن أجل هذه المحبة الأبوية كان واجب الأبناء مقابلتها بالتقدير والتوقير والاحترام والإحسان للاباء وطاعتهم وسماع توجيهاتهم وإرشاداتهم ليتحلوا بمكارم الأخلاق ونبذ الثقافة الغربية الهابطة والابتعاد عن الانحرافات التي تؤدي للانحلال والجري وراء زيف الحياة المدنية التي يصدرها لنا الغرب.

* * *

مكانة البنات في الأسرة

إذا كان العرب قد شغفوا بالابن دون البنت في جاهليتهم، فإن ذلك لم يقلل من مكانة البنت عند أبويها وإخوانها وأبنائها وأسرتها، حتى إن تجاوز بعضهم حدّ الذوق، وتحدّى النواميس الطبيعية، فأقدمَ على قتلها وهي طفلة، تأسيساً على أسبابٍ ظنية ومبررات أقنع نفسه بها، فجاء القرآن الكريم ليعاتبهم عتاباً أشبه بالتقريع إذ قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾ [النحل: ٥٨-٥٩]. لقد تأثّر الناس بهذا اللومَ والتقريع وقد رجعوا إلى عقولهم وثابوا إلى رشدهم وعرفوا أنهم فعلاً كانوا خاطئين بهذا الفعل الشائن، فتابوا إلى الله واستبدلوا مواقف الكره بالحب والعطف والشفقة والرحمة، وبذلك رُدت إلى البنت كرامتها وحقوقها كإنسانة شقيقة الرجل في الحقوق والواجبات والمسئوليات، وإبراز أهميتها في مجال تربية الأبناء وتوجيههم وغرس بذور الإيمان والأخلاق الفاضلة في نفوسهم، حيث إنها المدرسة الأولى التي يتأدب فيها الأبناء الذين يولدون على الفطرة، فأهله (خاصة أمه) يهودانه أو ينصرانه أو يُمجسانه.

لقد ترجم الشاعر مشاعره الأبوية نحو ابنته التي يحبها ويفيض قلبه شفقة عليها، ومع ذلك نراه يهوى موتها لأسباب افترضها دون وجه حق، إذ يقول مفلسفاً نظرته إليها[1]:

تَهْوَى حياتي وأهوى موتَها شفقاً ... والموتُ أكرمُ نزّالٍ على الحُرُمِ

(١) عيون الأخبار: ج٣، ص٩٤.

ومع هذا، وبعد رسوخ مبادئ الإسلام السمحة في قلوب الناس التي ردت على البنت حقها وكرامتها، فقد احتلت البنت على إثرها مكانة عزيزة في أسرتها، كما احتلت جزءاً كبيراً من قلب أبيها، فغمرها بالعطف والحنان، وأحاطها بالحب والرحمة، التي عمرت قلبه بفطرة حب الأبناء التي فطرها الله سبحانه في قلوب الاباء، فأشغل هذا الأب فكره بحاضر ابنته ومستقبلها أكثر مما أشغله على ابنه الذكر، فجهد ما وسعه الجهد ليحقق لها الراحة والحياة الرغيدة، وبذل من نفسه وروحه لصيانتها وحمايتها من كل ضرر أو مكروه، كما صرح بذلك الشاعر الإسلامي الأب إسحق بن خلف الذي نحس أنه يكلف نفسه المشاق لتأمين حياة ابنته من عوادي الزمن فيقول[1]:

لولا (أميمة) لم أجزَع من العَدَمِ ... و لم أجُبْ في الليالي حُنوس الظُّلمِ
أحاذر الفقر يوماً أن يُلِمَّ بها ... فيهتِكَ السِّترَ عن لحمٍ على رُغُمِ
أخشى فظاظةَ عمٍّ أو جفاءَ أخٍ ... وكنت أُبقي عليها من أذَى الكَلِمِ

ويفكر الأب الذي هو ربّ الأسرة في مستقبل ابنته، ويناقش ذلك مع نفسه محتاطاً إلى ما قد تخبئه الأقدار، فلا يقدم على أمرٍ يخصها، أو له أثر على حياتها، إلا بعد إعمالِ فكرٍ وتقليب رأي وتمحيصه لاستشعار أثره على ابنته، واستشفاف ما تؤول إليه حالها، زيادة في الحرص عليها، والعمل على راحتها، إذ يقول الشاعر عبد العزيز الديرني[2]:

أحب بنيَّتي ووَدَدْتُ أنِّي ... دفنتُ بنيّتي في قاعِ لحدِ
وما بي أن تهونَ عليّ لكن ... مخافةَ أن تذوقَ الذلَّ بعدي
مخافةَ أن تصيرَ إلى لئيمٍ ... فيفضحَ والدي ويُشين جَدّي

---

(١) عيون الأخبار: ج٣، ص٩٤. ديوان الحماسة للتبريزي: ج١، ص١٠٠.
(٢) المستطرف: ج٣، ص١١.

وإن زَوَّجتُهَـــا رجـــلاً فقيـــراً أراهـــا عنـــدهُ والهـــمُّ عنـــدي
وإن زَوَّجتُهـــا رجـــلاً غنيـــاً فيلطُـــمُ خَـــدَّهـــا ويسُـــبُّ جَـــدِّي

والأب يؤثِرُ ابنته على نفسه، فيجمد نشاطاته ويضحي بمتعه، ليبقى قريباً منها، فيلغي رحلات سفره، سواء لطلب الرزق أو الترويح عن النفس والسياحة ليبسط عليها ظلال الأمان، ويوفّر لنفسها الاطمئنان، فيقول الشاعر حطّان بن المعلّى معبّراً عن شعوره وشعور كل الاباء نحو أولادهم وبناتهم فيقول[1]:

لـــولا بُنَيَّـــاتٍ كـــزُغـــبِ القَطـــا حُطِطْـــنَ مِـــنْ بعـــضٍ إلـــى بَعـــضِ
لكـــانَ لـــي مُضطَـــرَبٌ واسِـــعٌ في الأرضِ ذات الطولِ والعَرضِ
وإنّمـــــا أولادنـــــا بيننـــــا أكبـــادنـــا تمشـــي علـــى الأرضِ
لـــو هبّـــت الـــريـــح علـــى بعضهـــم لامتنعـــت عينـــي عـــن الغمـــضِ

إن مبعث هذه العلاقة الوطيدة بين الأب وابنته، راجع إلى الحب الفطري الإلهي في الأصل، ثم المسئولية في الرعاية التي أوصت بها السنة الشريفة وحمّلتها للأب، فقال عليه السلام: «**والرجل راع في بيته**»[2] ثم هو الحدب عليها وإحاطتها بعين عنايته، وتوفير السلامة لها وتأمين المستقبل السعيد، إضافة إلى الإشراف على تربيتها اللائقة وإعدادها لتكون أُمّاً في الغد القريب. ولن يهدأ له بال إلا إذا رآها مطمئنة في بيتها ومع زوجها وأولادها. إنها البنوة المتمكنة من قلب الأب وتعلقه بابنته فطرياً غريزياً، وكثيراً ما تكون مواقف البنت نفسها من أبيها مبعثاً مهماً لتحريك عاطفة الأبوة في أعماق الأب، إذ أنها في كثير من الأحيان تتعلق هي الأخرى بأبيها، مما لفت الأنظار إلى قول القائِل: «إنَّ كلّ فتاةٍ بأبيها مُعجَبة». انطلاقاً

---

(١) الأمالي للقالي: ج٢، ص١٨٩. ديوان الحماسة للتبريزي: ج١، ص١٠١.
(٢) صحيح البخاري: ج٥، ص٣٠٤.

من احترامها لأبيها والبرّ به والاعتراف بفضله، وأنه سبب وجودها وهي تلمس مدى حبه وجهده لرعايتها فتبادله الحبّ والتقدير، وتبذل له من الطاعة والإحسان إليه ما يقرّبها من نفسه وقلبه، إنها تحزن بعمق عندما تحسُّ أن أباها سيبتعد عنها، أو يتركها ليرحل رحلةً لا تدري ما تُخبّئه له الأقدار فيها، وأحياناً تتضافر كل هذه العوامل دفعة واحدة، خاصة أن من البنات أديبات أريبات مفوّهات ومنهن حكيمات بليغات، وهنا شاعرة تبدي من الإعجاب بأبيها ما يدعوها أن تنكر أن أحداً يضاهيه أو يُماثله، إذ تُنشد بإعزاز وافتخار[1]:

ألا فاقصري من دمع عينك لن تَري ... أبـاً مثلـه تُنمـى إليـه المفـاخِـرُ

وكنـتُ إذا شئـتُ سَنَيـتُ بـوالـدٍ ... يـزيـن كمـا زانَ اليـديـن الأسـاورُ

ومن أحسن ما يعبر عن تعلق البنت بأبيها ما رويَ أن المأمون[2]، الخليفة العباسي، غضب يوماً على أحد معاونيه، فعزله وصادر أمواله وضياعه، فلما ضاقت به الدنيا، عزم على السفر والرحيل، وعندما علمت ابنته بِنيَّته، بكت بكاءً شديداً، وقبضت على يده قائلة: يا أبتِ اقنع بما آتاك الله، واصبر على محن الزمان ونوائب الدهر، والزم الأوطان، وارحم ضعفي ووحدتي وقلّة حيلتي، وإلا فاذبحني، لكيلا أُبتلى بفراقك، وتسوء حالتي من بعدك، فبكى أبوها ورق لكلماتها الحكيمة التي لا تخلو من عظة، فقال منشداً هذه الأبيات التي تقطر رحمةً وعطفاً[3]:

تقـول ابنَتـي لَمـا أردتُ وداعَهـا ... وقـد حضَـرَتنِـي نيَّـةٌ و رَحيـلُ

لعـل المنـايـا فـي رحـالـك تنبـري ... لنفسـك خَتـلا أو يغـولـك غـولُ

---

(١) ديوان الحماسة: ج١، ص٤٢٧.

(٢) الأمالي للقالي: ج٢، ص١٨٩، المحاسن والمساوئ: ص٣٧٨.

(٣) المصدر نفسه.

فتتركني أُدعى اليتيمة بعدما تَبينَ، وعزّي بعد ذلك ذليلُ
أفي طلب الدنيا وربُّك الذي تسير له راعٍ عليكَ كفيلُ

تأثر المأمون عندما بلغته هذه القصيدة، وقد أُعجبَ بأدب هذه البنت البارَّة بأبيها المتعلقة به، وقد شرحت ما قد تلاقيه بعده وتخسر ما كان يوفره لها، فدعاه وطلب منه إنشاد ما قاله، ثم رده إلى منصبه إكراماً لتعلق هذه البنت بأبيها وتعظيماً لموقفها.

ومثل هذا الموقف تكرّر مع الشاعر الأعشى وابنته، فحين همّ بالرحيل وقفَت ابنته لتمنعه وتثنيه عنه، خشية أن تفقده، فتشعر بالوحشة من بعد الأنس، والحزن من بعد السرور، ولما لم تستطع ردَّه، رفعت يدها وبصرها للسماء، تدعو له بالسلامة والعودة الحميدة، وخرج الأعشى وهو ينشد مسجلاً وقائع هذا المشهد الحزين المؤثر، ويطلب منها أن تكون صابرة متفائلة بقوله[1]:

تقولُ بنيَّتي وقد قرَّبْتُ مرتحلاً يا ربّ جَنِّب أبي الأوصاب والوجَعا
واستشفعت من سُراة القوم ذا شرفٍ فقد عصاها أبوها والذي شفَعا
كوني كمثل الذي غابَ وافدها أهدَت له من بعيدٍ نظرةً جزَعا

ويتذكر الأعشى في رحلته توسلات ابنته، ويرسم في مخيلته صورة لليتم الذي توقعته من بعده فينشد[2]:

تقول ابنتي حين الرحيل أرانا سواء ومَن قد يَتِمْ
أبانا لقد رِمتَ من عندنا فإنّا بِخيرٍ إذا لم تَرِمْ
ويا أبتا لا تزال عندنا فإنا نَخاف بأن نُختَرَمْ
أرانا لا أضمرتك البلاد نُجفى وتُقطعَ منا الرَّحِم

(١) ديوان الأعشى الكبير: ص٩١.
(٢) المرجع السابق.

لقد ظلت توسلات ابنته عالقة في ذاكرته إذ من الصعب نسيانها، ونسيان تلك الصورة التي تحمل أسمى معاني الرحمة. وها نحن نراه يسترجع المشهد ويتذكر ما كانت قالته ابنته في حوارهما كي تثنيه عن السفر، فيتذكر حالها ويتحسر على فراقها. لا شك أن دموع البنت تؤلم الأب، وتحز في نفسه وقلبه، عندما لا يستطيع إجابة طلبها، وتفادي دموعها التي تنحدر على خديها فتقطع كبده.

وقد تعرض مالك بن الريب لموقف مماثل أمام ابنته الباكية، فيبدو أنه مضطر للسفر والابتعاد مثل الأعشى، لذلك لم يستجب لتوسلاتها رغم تأثره بهذا المشهد فأنشد بقلب مفجوع[1]:

ولقد قلتُ لابنتي وهي تبكي ... بدخيل الهموم قلباً كَئيبا
وهي تُذري من الدموع على الخدّين ... من لوعة الفراقِ غُروبا
اسكتي، قد حَزَزتِ بالدمعِ قلبي ... طالما حزَّ دمعُكُنَّ القلوبا
فعسى الله أن يدافع عنّي ... ريب ما تَحذَرين حتى أؤبا

وابنةٌ بارةٌ أخرى، تسرع إلى الحجاج تدق بابه، عندما علمت أنه قد أمر بقتل أبيها، فتشفع لأبيها عنده بقصيدة مؤثرة، تشرح فيها مدى حاجة البنات لأب يعولهن ويبسط عليهن جناح حمايته، حتى ينشأن في ظلال تربية سليمة، لقد نَجحت هذه الابنة في دغدغة عواطف الحجاج حتى رق قلبه وعفا عنه، مقدراً شجاعتها وبلاغتها وموقفها وحبها لأبيها، ومخاطرتها في اقتحامها مجلس الحجاج تستشفعه شعراً مؤثراً، ومما أنشدته بين يدي الحجاج قولها[2]:

---

(١) ديوان مالك بن الريب: ص٤٧.

(٢) المحاسن والمساوئ: ص٣٧٨.

أحجّـاج إمّـا أن تَجـودَ بنعمـةٍ علينـا وإمّـا أن تقتلَنـا معَـا
أحجّـاج كـم تفجـع بـه إن قتلتـه ثـلاثـاً وعشـراً واثنتيـن وأربَعـا
فَمَـن رجـلٍ دانٍ يقـوم مقـامـه علينا، فمهلاً لا تَزِدْنا تَضَعْضُعا
أحجّـاج هَبـهُ اليـومَ لله وحـدَهُ وللبـاكيـاتِ الصـارخـاتِ تفجُّعـا

إن مبعثَ حزن هذه الابنة هو البر بأبيها وحبها الفطري للأب ذو المكانة الوطيدة الراسخة في قلبها،إذ هي الفرع من ذاك الأصل، وشعورها وتصورها المكان بدون أبيها، وإحساسها بأن هذا الأب هو بمثابة الركن الشديد والصرح القوي المكين والحصن المنيع معرض للهدم، فلم يعد لها ما تحتمي في حماه، أو ما تستند عليه، أو ما تأوي إليه في ملماتها من بعده، إنه الأب الذي يحوطها برعايته ويغدق عليها من فيض حبه وحنانه ورحمته منذ كانت طفلة، ثم وهي شابة إلى أن تصبح كهلة. وانظر إلى الزبير بن عبد المطلب، كيف أنه حين دخلت ابنته أم الحكم عليه مجلسه الذي يضم أبناءه وأبناء أخوته ذات يوم وكانت متزوجة، فأجلسها على فراشه وجعل ينظر إليها بإعجاب وزهو، ثم أنشد نافساً عليها زوجها الذي غلبه عليها فقال[1]:

يـا حبَّـذا أمُّ الحَكَـمْ كـأنّهـا ريـمُ أجَـمْ
يـا بَعلهـا مـاذا يشُـمّ سـاهَـم فيهـا فسهَـمْ

يعني أن زوجها خطبها ولم يستطع رده أو الامتناع عن ذلك، لأن ليس أحب على قلب الأب من أن يرى ابنته في بيت وأسرة، وفي ظل زوجٍ محترم خلوق، لذلك يقول أنه غلبه عليها فأخذها من بيته وضمها إليه وهذه سنة الحياة.

لا شك أن البنت تشعر بالأمان والاطمئنان في أسرة يسودها الحب والتراحم والتماسُك والتآزر، خاصة عندما تشعر أنها في حماية أبيها أكثر من

---

(١) الأمالي للقالي: ج٢، ص١١٦.

غيره من ذوي القربى، لأنها تراه أكثر المدافعين عنها وأقربهم إلى قلبها لأنها قطعة منه وهو أصلها وهي فرعه، لذلك نرى الأب يدفع روحه ثمناً للدفاع عن ابنته، وحمايتها من كل مكروه، ودفع كل ضرر يهددها، لمكانتها اللصيقة منه، كونها قطعة من كبده وفؤاده، وقد خصها الله سبحانه بالرقة والضعف الأنثوي والوداعة مما رقق قلوب آبائهن، فامتلأت حباً وإكراماً وبذلاً وعطاءً، وإغداقاً من فيض رحمتهم لهن رعاية وإعداداً، لتحمل مسئولياتهن في أسرهن الجديدة، والكثيرات منهن كن الأثيرات عند الاباء دون الأولاد، فالرسول عليه السلام يحب ويجل فاطمة الزهراء، وعن عائشة قالت: كانت إذا دخلت فاطمة عليه ﷺ أخذ بيدها، وقبلها ورحب بها وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل ﷺ عليها، قامت إليه ورحبت به، وأخذت بيده وقبلتها. مواقف متبادلة من الرحمة والتراحم والإعزاز والتوقير، وكذلك، فإن موقفه يوم أراد علي بن أبي طالب أن يتزوج عليها مشهود، فعندما علم عليه السلام قام في الناس خطيباً وقال: «**إن بني المغيرة يريدون أن يزوجوا علياً ابنتهم، إن فاطمة بضعة مني، يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها، وإذا أراد ابن أبي طالب أن يتزوج فعليه أن يطلقها**»[1]، فترك علي خطبة المرأة إلى أن توفيت فاطمة الزهراء رضي الله عنها.

روى ابن هشام في السيرة قال: عندما حضرت عبد المطلب الوفاة، طلب بناته وكن ست نسوة، فقال لهن: أحب أن أسمع منكن ماذا تقلن قبل أن أموت؟ فقامت كل واحدة منهن وقالت شعراً مؤثراً، يستدر الدمع، ويشجي النفس، وقد جزعن عليه جزعاً شديداً، وخلعن عليه من الصفات الحميدة، والخِلال النبيلة والشمائل الحلوة والأخلاق الطيبة، وافتخرن بمساعيه إلى الخير، ومما قالته صفية وهي أكبرهن، إنشادها[2]:

---

(١) صحيح البخاري: ج٥، ص٢٠٠٤.

(٢) السيرة النبوية: ج١، ص١٦٩.

أرِقْتُ لِصَوتِ نائِحَةٍ بِلَيلٍ ... على رجلٍ بقارعةِ الصَّعيد
ففاضت عند ذلكم دموعي ... على خدّي كمنحدرِ الفَريد
على رجلٍ كريمٍ غير وَغدٍ ... له الفضلُ المبينُ على البَعيد
على الفيّاض شيبةَ ذي المعالي ... أبيك الخير وارث كلَّ جود
صدوقٌ في المواطن غير نُكس ... ولا شَختِ المقامِ ولا سَنيد[1]

ومما قالته برة:

أعينيَّ جودا بدمع دُرَر ... على طيّب الخَيم والمعتَصر[2]
على ماجد الحدّ واري الزناد ... جميل المحيا عظيم الخَطر
على شيبة الحمد ذي المكرمات ... وذي المجد والعزّ المفتَخر

ومما قالته عاتكة بنت عبد المطلب:

أعينيّ جودا ولا تبخلا ... بدمعكما بعد نومِ النِّيام
على شيبةَ الحمد واري الزناد ... وذي مصدق بعد ثَبتِ المقَام
وسيفٌ لدى الحرب صمصامةٌ ... ومردي المخاصم عند الخصام

ومما قالته أم حكيم:

ألا يا عين جودي واستهلّي ... وبُكي ذا الندى والمكرمات
طويل الباع شيبة ذا المعالي ... كريم الخَيْمِ محمود الهبات
وصولاً للقرابة هبرزيّاً ... وغيثاً في السنين الممحلات[3]

---

(١) النكس: الرجل الضعيف.
الشخت: الهزيل.
السنيد: غير المستقل برأيه.
(٢) الخيم: السجية.
المعتصر: الجواد.
(٣) هبرزياً: يقطع اللحم قطعاً كبيرة.

وقالت أروى باكية:

بكت عيني وحُقَّ لها البُكاء ... على سَمحٍ سجيّتُه الحَياء
على سهل الخليقةِ أبطحيّ ... كريم الخَيْمِ نيّته العلاء
طويل الباع أملس شيظميّ ... أغرّ كأنّ غرّته ضِياء[1]

فلما فرغن أشار برأسه، أي هكذا فأبكينني، ثم صمت ومات رحمه الله.

حقيقة أن الآباء يعرفون تمام المعرفة الحال التي ستئول إليها بناتهم من بعدهم، فإنهن الأكثر تفجعاً وحزناً، والأرق شعوراً وشفافية وضعفاً، وقلة القدرة على التحكم في العواطف، وهن الأكثر تضرراً بخسارة فَقد الأب الذي يحاول تطمينها وتطييب خاطرها إذا قدر له أن يخاطبها قبل موته، كما فعل أبو فراس الحمداني إذ يقول لابنته، وقد توقع فجيعتها من بعده[2]:

أبنيّتي لا تجزَعي ... كُلُّ الأنامِ إلى ذهاب
أبنيّتي صبراً جميلاً ... للجليل من المصاب
نوحي عليَّ بعبرةٍ ... من خلف سترِكِ والحجاب
قولي إذا كلّمتني ... فَعَيَيتُ عن رد الجواب:
زينُ الشبابِ أبو فراسٍ ... لم يُمتَّع بالشباب

لقد بادلت البنت أباها حباً بحب، ووفاءً بوفاء، والمرأة العربية بطبعها، معروفة بالوفاء للرجل أكثر من وفاء الرجل لها، سواء كان في موقع الأب أو الزوج أو الابن، وقد افتخرت بأبيها وبفروسيته وبصفاته الحميدة واعتزت به وأعجبت كل الإعجاب، الأمرُ الذي بلغَ بمنفوسة بنت زيد الفوارس أن

---

(١) الشيظميّ: الفصيح.

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني: ص٦٤.

تشكك في مقدرة ابنها حكيم بن قسيم أن يرقى إلى مزايا أبيها وصفاته وخِلاله، واستمع إليها تنشد وهي ترقص ولدها حكيم:

أشْبِـهْ أخـي أو أشبهـنَّ أبـاكـا أمـا أبـي فلَـنْ تنـالَ ذاكـا
تقصُـرُ أن تنـالَـهُ يَـداكـا

يا له من فخر ملك عليها كل شعورها وإحساسها، حتى إنها لم ترقَ بابنها إلى بلوغ ما بلغ أبوها من المجد والسيادة والخصال المحمودة، وقد فاخرت الخنساء العرب عامة بعظم مصيبتها بموت أخويها وأبيها أثناء تطوافها سوق عكاظ، وقد عرف العرب لها ذلك. إلى أن قتل عتبة والد هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان كما قتل عمها شيبة وكذلك أخوها الوليد بن عتبة، فأقبلت تقول: أنا أعظم العرب مصيبة، وأمرت بحملها إلى عكاظ حيث تتواجد الخنساء، ولما تقابلتا، قالت هند للخنساء، بماذا تعاظمين العرب مصيبتك؟ قالت: بأبي عمرو بن الشريد، وأَخَوَي معاوية وصخر، وسألت الخنساء هند، وأنت بِم تعاظمينهم؟ قالت: بأبي عتبة، وعمي شيبة، وأخي الوليد، ثم أنشدت تعبر عن شعورها تجاه أفراد أسرتها المقربين إليها وعلى رأسهم أبوها عميد الأسرة[1]:

أبكـي عميـدَ الأبطحَيـن كِلَيهمـا ومـانعهمـا مـن كـل بـاغٍ يُـريـدهـا
إلى عتبة الخيرات وَيْحَكِ فاعلَمي وشيبـةَ الحـامـي الـذمـار وليـدهـا
أولئِـكَ آل الحمـد مـن آل غـالـبٍ وفـي العـزِّ منهـا إذ يَتـمُّ عـديـدُهـا

فقالت لها الخنساء: ويحك، أنا أعظم منك مصيبة، فاسمعي ما أقول في أفراد اسرتي المقربين (أبي وأخَوَي)[2]:

---

(١) شرح ديوان الخنساء: ص٨.

(٢) المصدر نفسه.

أبكي على أبتي بعينٍ غزيرةٍ خليلي إذا نامَ الخليُّ هجودها
ودَهري لا أنسى معاويةَ الذي له من سُراةِ الحرَّتَيْن وقودها
وصخرٌ ومن مثلُ صخرٍ إذا غَدا بساحته الأبطالُ قرمٌ يقودها
فذلك الرزية يا هند فاعلمي ونيران حرب حين شبَّ وقودها

وإذا ما مات الأب (رب الأسرة)، تهب البنت إذا رأت في نفسها القدرة على نجدة أبيها أو رأت تقاعساً من قومها أو إخوتها، فتطالب الأخذ بثأره إذا قُتِل، وفي أدنى الحالات تحرض قومها وإخوتها، وتطالبهم أن يكون بكاؤهم منسجماً عليه مع دموع ودم القاتلين وهي تقطر من أسيافهم، لذلك نرى حنيفة من بني ذيبان تثور وتصرخ في وجوه قومها، وتهددهم وتتوعدهم بالعار الذي يلحقهم إن لم يثأروا لأبيها وعميد أسرتها بقولها:

فيا بني ذيبان بُكّوا عميدكم بكل دقيق الحدّ أبيض باتر
وكلّ ردينيٍ أصمّ كعوبه ينوء بصلٍّ كالحقيقة زاهر
فإن أنتم لم تُصبحوا القوم بغارةٍ يحدّث عنها واردٌ بعد صادر
وترموا عقيلاً بالتي ليس بعدها بقاءٌ فكونوا كالإماء العواثر

لقد صدق معاوية بن أبي سفيان في حديثه مع عمرو بن العاص، في نقل مشاعر البنت نحو أبيها وقومها، إذ قال له عندما دخل عليه في بيته فرأى ابنته تتمرغ على صدره[1] فقال عمرو مندهشاً: من هذه يا أمير المؤمنين؟ قال: إنها تفاحة الدار والقلب، فقال عمرو: أمطها عنك يا أمير المؤمنين، فإنهن يقربن البعداء ويلدن الأعداء، فقال له معاوية: لا تقل ذلك يا عمرو، فما مرض المرضى، ولا ندب الموتى، ولا أبر الأحياء كهُن، فقال: والله يا أمير المؤمنين قد تركتهن آثر عندي من الأبناء)، هذه آثار مبادى الإسلام السماوية السمحة التي حببت البنات إلى القلوب، وجعلتهم يغيروا من مواقفهم السابقة.

---

(١) عيون الأخبار: ج٣، ص٩٩.

ويروى أن أعرابياً يُقال له أبو حمزة، هجر زوجته عندما ولدت له بنتاً، وصار يذهب إلى بيت مجاور، فلما مر ذات يوم كعادته بقرب البيت، أنشدت الزوجة بصوت مرتفع لتُسمعه[1]:

ما لأبي حمزة لا يأتينا ... يظلُّ في البيتِ الذي يلينا
غضبان ألاّ نَلِدَ البنينا ... تالله ما ذاك في أيدينا
وإنما نأخذ ما أُعطينا ... ونحن كالأرض لزارعينا

دخلت هذه الكلمات البسيطة ذات المعاني العظيمة، والمفاهيم السليمة، قلب أبي حمزة، فهزته من الأعماق بمنطقها وحُسن بيانها، حينما استطاعت هذه المرأة أن تشرح وجهة نظر بنات جنسها عموماً في مسألة ولادة البنت، وقد كانت كافية لإقناع أبي حمزة وتغيير موقفه فأسرع بالدخول على زوجته فقبل رأسها ورأس ابنته واعتذر لها، وهكذا استطاعت هذه المرأة إنقاذ أسرتها من الهجر والانهيار والتشتت، وتم قبول الابنة من ضمن أفراد الأسرة.

فإذا ما وُجِد في العصر الجاهلي من أعماه قلبه، وأطاع شيطانه وزينت له نفسه قتل ابنته عملاً بقول شاعرهم[2]:

الموت أخفى سوأةً للبنات ... ودَفنُها يُروى مِنَ المُكرَمات

أو قول الشاعر الآخر[3]:

إنّي وإن سيقَ إليَّ المَهرُ ... أَلفٌ وعبدان وذود عِشر
أحبُّ أصهاري إليَّ القبر

---

(١) محاضرات الأدباء: ج٢، ص٣٢٥.
(٢) المستطرف في كل فن مستظرف: ج٢، ص٣٠٣.
(٣) طبقات فحول الشعراء: ص٥٦١.

فقد كان هناك الكثير من الناس في عصرهم بعكس هؤلاء ممن يقدرون أهمية الرحمة والتراحم بين أفراد الأسرة الواحدة، لا فرق بين ذكر وأنثى، ينعون على أمثالهم مواقفهم هذه، كالشاعر معن بن أوس الذي يقول ناعياً على من يكرهون البنت دون الولد[1]:

رأيتُ أناساً يكرهونَ بناتهم ... وفيهنَّ نساءٌ لا تكذب صوالِحُ
وفيهنَّ والأيام تَعثُرُ بالفتى ... نَوادبٌ لا يكذبْنَ نوائِحُ

ومن المواقف اللطيفة التي تدعو للترحيب بالبنت وحبّها وتغيير المواقف من الكره إلى الحب، إضافة إلى ما تتمتع به من خصائِص وصفات تقربها من قلب أبويها، ما جاء في موقف هذه الأم الذي استظرفه صاحب المستطرف فأورده في كتابه، قال: كان لأعرابي زوجتان، ولدت الأولى غلاماً، والثانية جارية، فقامت الأولى ترقص ولدها وتقول على مسمع من ضرّتها لتغيظها[2]:

الحمد لله الحميد العالي ... أنقذني العامُ مِنَ الجَوالي
ومِنْ كلّ شَوهاءَ كَشَنٍّ بالي ... لا تدفَعُ الضَّيْمَ عن العِيَالِ

إنها فَرِحَة مسرورة وهي تشعر ضرتها أنها ولدت ذكراً يتحمل المسئولية مع والده، وليس مثل ضرتها التي ولدت بنتاً لتكون عالةً على أبيها وأخيها.

فقامت أم البنت ترقص ابنتها وتجيبها وهي تعدد منافع البنت لأبويها، إذ أنها أحد أفراد الأسرة وتقول[3]:

ما علي أن تكونَ جاريه ... تَغسِلُ رأسي وتكون الغاليه
وترفع السَّاقط من خِماريه ... حتّى إذا بلغت الثمانيه
أزرتُها بنقبةٍ يَمانيه ... وأنكحتُها مروان أو مُعاويه

---

(١) الأغاني: ج١٠، ص١٥٦.
(٢) المستطرف: ج٢، ص١١.
(٣) المصدر نفسه.

إنها فعلاً تتحدث عن استكمال الحياة التي لا تستقيم إلا برجل وامرأة، لأنهما أساس كل أسرة، لذلك خلق الله حواء لادم لعمارة الأرض والكون وحفظ النسل.

قال: فسمع عنها مروان، فخطبها على مائة ألف مثقال وقال: حقيقة أن لا نكذب ظن أمها فينا، ولا يُخان عهدها، فلما سمع معاوية بالقصة قال: لولا مروان سبقنا إليها لأضعفنا لها المهر، ولكن لا تحرم من الصلة، فبعث إليها بمائتي ألف درهم والله أعلم.

ومن الصور التي تعكس مدى حب الأب لابنته وعمق مكانتها وإعزازها في قلبه ونفسه، وقوف عمرو بن الشريد بجانب ابنته الخنساء عندما رفضت خطبة دريد بن الصمة، وأراد أخوها معاوية إكراهها، فقال أبوها: «لها في نفسها ما ليس لغيرها»، واعتماداً على موقف أبيها (رب الأسرة) هذا رفضت الانصياع لرغبة أخيها معاوية مستندة إلى معاضدة أخيها صخر كذلك فأنشدت[1]:

تباكرني حميدة كلّ يوم ... مِما يولي معاوية بن عمرو
فإلا أُعطَ من نفسي نصيباً ... فقد أودى الزمان إذَنْ بصخر
أتُكرهُني (هُبِلتَ) على دُريدٍ ... وقد أحرَمْتُ سيّدَ آل بدر

وهكذا كان من أمر هند بنت عتبة حين خطبها ثلاثة رجال، فماذا كان موقف أبيها تقديراً لمكانتها وإعزازها في قلبه، لقد استشارها وأعطاها حرية الاختيار، فآثرت أبا سفيان لصفات أعجبتها، مما أحنق سهيل بن عمرو فأنشد:

نُبِّئْتُ هنداً تبَّرَ الله سَعيَها ... تَأبَّت وقالَت أهوَج وهو مائِق
فلم تَنكِحي يا هندُ مثلي وإنني ... لِمَن لَم يمُقني فاعلمي غير وامق

(١) شرح ديوان الخنساء: ص١٠٢.

أما ماوية بنت عفزر، فقد اختارت حاتم الطائي زوجاً لها بعد مناظرة حامية ومشهودة بين المتنافسين، وفعلت فعلها امرأة من هذيل رفضت خطبة تأبط شراً بسبب خشيتها من موته سريعاً لصعلكته فأنشد قائلاً[1]:

وقالوا لها لا تَنكِحيهِ فإنّه لأول نصلٍ إن تلقّاه مُجمِعا

إن الذي أعطى البنت هذه القوة ومنحها هذه المساندة العظيمة هو أبوها لمكانتها في الأسرة، فوفر لها الحماية اللازمة وأمدها بسلطانه الأسري فنعمت هي بها، ومارست حريتها، وأحست بكرامتها، متفيأةً ظلال خيمة أبيها الوارفة، وقد روى أنه قَبِلَ إجارتها وأجازها، واحترم كلماتها ونفذ مشيئتها، حتى لو أجارت عدوه، فلم يعرضها لمواقف السخرية أو الاستهزاء أو ما يلحق بها ذلاً أو إهانة.

وعندما تزوّجَت زينب بنت سيدنا محمد عليه السلام أبا العاص وظل على شركه، فقد فرق الإسلام بينهما، ولحقت بوالدها في المدينة المنورة، فتشتت هذه الأسرة الصغيرة على ما كان بينهما من حب وتراحُم، فخرج أبو العاص يوماً في تجارة لقريش، فأصاب المسلمون قافلته واغتنموها، فما كان منه إلا أن تسلل ليلاً إلى بيت زوجته السابقة وشريكته في أسرته، زينب بنت محمد عليه السلام واستجارها، فأجارته وأضمرت العمل على حل مشكلته، لم لا فهو كان رب أسرتها وأب أولادها ولكريم أخلاقها وإيمانِها الراسخ، فقد قامت عند صلاة الفجر، وبعد دخول الرسول عليه السلام في الصلاة، وضمنت أن لا أحد يقاطعها، صاحت بصوتها من صُفة النساء: أيها الناس، إني أجرت أبا العاص بن الربيع[2] تدبير جيد من زينب يشير إلى فطنة وذكاء، لأن الناس في الصلاة والكل سكوت ما عدا صوت

---

(١) ديوان الحماسة للتبريزي: ج١، ص١٨٩.

(٢) جواهر البخاري: ص٤٤٧.

الإمام فاغتنمت ذلك لتسمعهم إجارتها فلا يستطيعون الرد عليها، ولكن فور انقضاء الصلاة، أقبل الرسول عليه السلام على الناس وقال: **أيها الناس، هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا: نعم، قال: أما والذي نفس محمد بيده، ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعتُ ما سمعتم**، ليشعرهم أن هذا من تدبير زينب وحدها ولا دخل له في ذلك، لكنها محسوبة من أسرته ومسؤوليتها تقع عليه، ثم قال عليه السلام: «**اعلموا أنه يجير على المسلمين أدناهم**»[1] ثم انصرف ودخل على ابنته زينب وقال: «**أي بنية، أكرمي مثواه، ولا يخلُص إليكِ أو لفراشك، فإنك لا تحلين له**»[2] فرد الناس له أمواله حتى لم يفقد عقال بعير إكراماً لإجارة زينب ابنة الرسول، وإقرار الرسول عليه السلام (والدها) لها وبحقها وحق أي مسلم الإجارة إن رأى في ذلك إصلاحاً. لقد عاد الربيع بالقافلة إلى قريش سالمة غير ناقصة، ولما فرغ من تسليم كل ذي حق حقه، أعلن إسلامه أمامهم جميعاً، ثم عاد إلى المدينة مسلماً وحَسُنَ إسلامه، ورد الرسولُ إليه زوجته والتأمَ شمل الأسرة من جديد.

كما أجارَت جُماعة بنت عوف الشيباني مروان بن زنباع العبسي، ثم أعلمت أسرتها الأقربين أباها وأخوتها فخرجوا وحموه من مطارديه، تنفيذاً لإجارة ابنتهم وأختهم، وكذلك فعلت فكيهة بنت قتاد، فأجارت السليك بن السليكة من بعض قومها فلما أدركوه وأرادوا اقتحام بيتها، قامت دونه وكشفت عن خمارها في محاولة لإيقاف القوم وخروجهم حياءً منها، وصاحت بإخوتها وأبيها، فهبوا لنجدتها ونفذوا إجارتها، وخلصوه حتى أوصلوه خارج الديار، فقال يمدحها:

---

(١) جواهر البخاري: ص٤٤٧.

(٢) المصدر نفسه.

لعمـــر أبيـــك والأيَّـــامُ تُنمـــي لَنِعـمَ الجـارُ أخـت بنـي عـوارا
مـن الخَضِـرات لـم تفضـح أبـاهـا ولَـم تَـرفـع لإخـوتهـا شنـارا
وما عَجِزَت (فكيهةُ) يوم قامت بنصـل السَّيـفِ واستلبـوا الخِمـارا

وهكذا نجدُ أن البنت قد صادفَت حظوة كبيرة في أسرتها وعند أبيها وأخوتها، كما بادلت أباها حباً وتقديراً وإعزازاً بإعزاز، لذلك نراها قد تبوأت من قلبه مكانةً عميقة وإعزازاً وحباً، بددت تعميم الفكرة الشائِعة ببغض البنت وكرهها ووأدها على وجه العموم، فقد وجد الكثير من الاباء ممن أحبوا بناتهم وحدبوا عليهن وأفاضوا من عطف قلوبهم ورحمتهم. وقد جاء الإسلام الكريم ليعزز كرامتهن ويساويهن في الحقوق والواجبات وأوصى الرسول عليه السلام بالبنات خيراً وقال عليه السلام: «مَن ابتلي بشيءٍ من هذه البنات كن له ستراً من النار»[1] صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنه يعلم أن صلاح تربية البنت وإعدادها يكون لصلاح الأسرة، التي هي في الأصل أساس المجتمع بأسره، وإذا أُحسِنَ تربية وإعداد البنت فإنها بدورها ستُحسن إعداد وتربية أبنائها، الذين يصبحون في يوم ما أرباب أُسر، وقد عرف الشاعر حافظ إبراهيم دور الأم في إعداد رجال المستقبل فقال[2]: (مثال مكرر لأنه خير دواء لأصعب داء في هذا العصر):

الأم مـــدرســـة إذا أعـــددتَهـــا أعـــددتَ شعبـاً طيّـب الأعـراق

لذلك، فإن هذه الحلقة المفرغة، يجب أن تظل دوماً في حالة إعداد ونمو متواصل مع العقيدة الإيمانية، والتمسك بمكارِم الأخلاق الفاضلة، التي هي من أقوى عوامل وأدوات الحماية ضد الانحرافات ومقاومة الغزو الثقافي الهابط، وما يحويه من انحلالات خُلُقية يقود إلى التفكك الأسري

---

(١) صحيح البخاري. ج٢، ص٥١٤.

(٢) ديوان حافظ إبراهيم: ص٢٨٢.

الذي يسود بلاد الغرب، ويصدرون لنا أرذله وأهبطه لخلخلة دين أولادنا وبناتنا بصفة خاصة لأن دورها عظيم في بناء الأجيال، فيركزون عليها لخلق جيل بلا أخلاق، وتجريدهم من سلاح القيم الإسلامية الأخلاقية، حتى يتمكنوا من السيطرة عليهم، لكن الله له اليد الطولى على الجميع فيقول سبحانه: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢] اللهم يسر لنا بنات طائِعات وطاهرات وأمهات مخلِصات لدينك القويم، آمين.

مكانة الاخوان في الأسرة

رابطة الأخوة رابطة عزيزة قوية، عميقة المنابت والجذور، موحدة الفروع والأصول، قائمة على التعاون والتعاضد والصفح والغفران، وإن تعرضت في بعض الحالات للأنواء، فسرعان ما تنقشع، فإنما هي دماء واحدة، ونفوس واحدة وأصول واحدة، وإن تفرقت، سواء كانوا أشقاء «أخوة لأب وأم» أو كانوا أقراناً «بنو أم واحدة من رجال شتى» أو كانوا أبناء العَلات «بنو رجل واحد من أمهات عدة». فالأخوة عماد الأسرة المتماسكة ورباطها وعضدها، حيث قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥] وحيث قيل: «فَقدُ الأخ قصُّ جناح»[١] وهناك نوع آخر من الإخوان غير ما ذكر، وهم من ينطبق عليهم قول القائل: «رب أخٍ لكَ لم تَلِدهُ أُمك» لقد أبرز الشاعر ما بين هؤلاء الأخوة في جميع مواقعهم من علائق وطيدة وصلات وثيقة، وروابط متينة وعلاقة حميمة مستندة إلى الأصل الواحد بقوله في هذا البيت من الشعر:

أعاذِلَتي، كلّ امرئٍ وابن أمّه متاعٌ، كزاد الرّاكِبِ المتزوِّدِ

وقول آخر يصف معنى الأخوة ويكشف عن خصائصها في شد الأزر والمعاضدة والإعزاز:

أخي الذي أدعُهُ لعظيمةٍ يُجِبْني وإن أغضبْ إلى السَّيْفِ يغضبُ

وهذا الشاعر زياد الأعجم يقول في وصف الأخ في جميع الأحوال[٢]:

---

(١) عيون الأخبار: ج٣، ص٩٢.

(٢) ديوان الحماسة للتبريزي: ج١، ص٣٧٧.

أخٌ لكَ ليس في خُلتِه بِمَذقٍ إذا ما عادَ فقر أخيه عادا[1]

أخٌ لك لا تراه الدَّهر إلاّ على العلّات بسّاماً جوادا[2]

لقد قيل في مكانة الأخوة: «إن الأخوة غذاء ودواء، وشد أزر وتعاضُد»[3]، وقال سبحانه وتعالى في القرآن الكريم على لسان سيدنا موسى عليه السلام: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ [القصص: ٣٤-٣٥]. والرسول عليه السلام آخى بين الصحابة من المهاجرين والأنصار، لعلمه بمدى ما للأخوة من قوة عظيمة معنوياً ومادياً، تعود بالفائدة والخير على الإخوان، حيث إن الرجل بلا أخ كما قال علي كرم الله وجهه: «كشمال بلا يمين»[4]. وقيل: «إن المرء كثير بأخيه»[5]. قال شبيب بن شيبة: ذهبت اللذات إلا من ثلاث: «شم الصبيان وملاقاة الإخوان والخلو مع النسوان». وقيل أيضاً في بيان منزلة الأخوة ومكانتها مع الإخوان: «إنَّ الأخوّة حصنٌ منيع، وركن شديد، يمنع بها الضيم وتنال الرغائب»[6]. وقال الشاعر بهذا المعنى مؤكداً أن المنعة والإعزاز وشد الأزر إنما تكون بالإخوان[7]:

وما المرءُ إلا بإخوانِه كما يقبض الكَفُّ بالمِعْصَمِ

ولا خَيْرَ في الكفّ مقطوعة ولا خَيرَ في السَّاعد الأجذَمِ

---

(١) المذق: اللبن المخلوط بالماء.

(٢) العَلات: جميع الأحوال.

(٣) محاضرات الأدباء: ج٢، ص٨.

(٤) المستطرف: ج١، ص١٩٩.

(٥) محاضرات الأدباء: ج١، ص٥.

(٦) المستطرف: ج١، ص١١٨.

(٧) المستطرف في كل فن مستظرف: ج١، ص١١٩.

وشاعر آخر وهو ربيعة بن مقروم يؤكد أن الأخوة الحقة تقوم على تبادل المودة والمناصرة والمعاضدة والمؤازرة وتواصلها بقوله[1]:

أخـوك أخـوك إن يَـدْنُ تَـرجُـو مـودَّتَـه وإن دُعـيَ استجـابـا
إذا حـاربـتَ حـاربَ مَـن تُعـادي وزادَ سـلامُـه مِنـكَ اقتِـرابَـا

ولهذا قيل: «إنّ المرءَ كثيرٌ بأخيه» وأوصى هذا الشاعر بالمحافظة على الأخوة، موضحاً مكانة الأخ وإعزازه وفعاليته، ودوره في تقديم الدعم والمساندة والمؤازرة لأخيه ضمن الأسرة الواحدة فقال[2]:

أخاك، أخاك، إن من لا أخاً له كساعٍ إلى الهيجاءِ بغيرِ سِلاَحِ

فالحياةُ إذاً معركة، والأخوة فيها قوة فاصلة هائلة مؤثرة معنوياً ومادياً، يشعر الأخ في رحابها بالدعم والأمان والاطمئنان والاستقرار، عندما يستند إلى جدار الأخوة العظيم الذي يعطي الأسرة القوة والمنعة والترابُط. ومن أقوال الرسول عليه السلام المأثورة: «**الإخوان عدة الدنيا والدين**»[3]، كما قال عليه السلام: «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، فقال رجل: أنصره مظلوماً أرأيت إن كان ظالماً فكيف أنصره، قال: تحجزه وتمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره**»[4].

وعلى أي حال فإن تفسير هذه المقولة في النهاية يصب في وادي مناصرة وإعزاز الأخ وعدم التخلي عنه ونصرته لما فيه خيرهما وخير الأسرة بشكل عام، إذ يقول الشاعر[5]:

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف: ج١، ص١٢٤، وديوان الحماسة للتبريزي: ج١، ص٢١٠.
(٢) محاضرات الأدباء: ج٢، ص٥٤٥.
(٣) جواهر البخاري: ص٢٧٥، صحيح مسلم: ج٨، ص٥٣٩.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) الأمالي للقالي: ج٢، ص٣٢١.

أبكـــي أخـــاً يلقـــانـــي بنـــائِلـــهِ قبل السُّؤال ويَلقى السَّيف مِنْ دونِي
إنَّ المنـــايـــا أصـــابَتنـــي مصـــائِبُهـــا فاستعجلت بأخٍ قد كان يلقيني

هذا أخ هو سلمة بن يزيد يصف أخاه لأمه قيس بن سلمة فيقول[1]:

أقـول لنفسـي فـي الخَـلاءِ ألـومُهـا لَكِ الوَيل ما هذا التجلُّد والصَبرُ
ألا تفهمين الحُبرَ أني لستُ لاقياً أخي إذ أتى من دون أكفانِه القَبْرُ
فتىً كان يُدنيه الغِنى من صديقه إذا مـا هـو استَغنـى ويُبعـده الفقـرُ
فنعمَ مناخ الضيف كان إذا سَرَتْ شمـالٌ وأمسـت لا يعـرّجهـا شيـرُ
ومأوى اليتامى الممحلين إذا انتهوا إلى بابه سُغباً وقد قحَطَ القَطرُ[2]

لقد أجاب عبد الله بن أبي بكرة من سأله عن فقد الأخ بقوله: «فَقد الأخ قص جناح»[3] فشبه الأخوة بجناحي الطائِر، والمعروف أن الطائر ضعيف بجناحٍ واحدٍ مما يسهل القضاء عليه، ومن هنا كان تأثر الشاعر متمم بن نويرة كبيراً بموت أخيه (مالك) وقد كان رجلاً سرياً، نبيلاً، شجاعاً، يردف الملوك، وكان متمم منقطعاً في بيته، معتمداً على أخيه مالك في معظم شؤون حياته فلا غرابة بحزن متمم على أخيه كونهما أبناء أسرة واحدة يعيشون فيها متكافلين، فأحس من بعد فقد أخيه بالضعف والاستكانة إحساس الطير الذي قص جناحه فعلاً، إذ يقول بحزن وحسرة وألم إذ انقطع عنه الرفد وما يحتاجه لدنياه الذي كان يأتيه به أخوه وهو قاعد في بيته[4]:

وكـانَ جَنـاحـي إنْ نَهضـتُ أقلّنِـي ويحوي الجناحُ الرّيش أن يتنَزَّعا
فـإن تَكُـنِ الأيَّـام فـرَّقـنَ بيننـا فقد بانَ محموداً أخي حين ودَّعا

---

(١) الأمالي للقالي: ج٢، ص٧٤.
(٢) سُغباً: جياعاً.
(٣) عيون الأخبار ج٣، ص٩٢.
(٤) الرثاء في الجاهلية والإسلام: ص٥٠، المفضليات: ص٢٦٥.

ويردد في قصيدة أخرى المعنى نفسه وباللوعة نفسها، والتفجع حال الأخ الذي يفقد أخاه الوحيد الذي يلقى عنده العون الأسري[1]:

وكل فتىً في الناس بعد ابنِ أمّه كساقطةٍ إحدى يديه من الخَيْلِ

وتحس الخنساء نفس الإحساس بالاستكانة والضعف والحسرة من بَعد أخيها صخر الذي كان سندها ونصيرها في الشدائد فتقول[2]:

دُقَّ عظمي وهاضَ منّي جناحي هُلكُ صَخْرٍ فما أُطيق بَراحا

وينقصم ظهر الشاعر الأُبَيرد لموت أخيه، كناية عن الشعور بالانكسار والضعف وقلة المؤازرة الأسرية فيقول:

فلمّا نَعى الناعي (بُرَيداً) تبدَّلت بِيَ الأرضُ فَرْطَ الحُزْنِ وانقَطَع الظهرُ
أحقاً عباد الله أنّي لستُ لاقياً بُرَيداً طوالَ الدّهر ما لألأ العُفرُ[3]

أما الشاعر لبيد بن ربيعة فيشعر بالوحدة والتفرد من بعد أخيه (أربد) ويعتريه إحساس بضعف موقفه في مواجهة الحياة وحيداً، بعد أن كان أخوه ردءاً له وركيزة لأسرته بشكل عام فيقول[4]:

إنَّ الرزيَّة لا رزيَّة بعدها فقدان كل أخٍ كضوء الكَوكَبِ
يا (أربَد) الخير الكريم جدودُه أفردْتَني أمشي بِقَرْنٍ أعضَبِ

ويكشف لنا في قصيدة أخرى أنه فقد منافعَ كثيرة وفوائدَ متعددة بفقد أخيه وكانت دائماً حاضرة له ولأسرته حيث يقول[5]:

قد كنتُ في أكناف جارٍ فُضنّةٍ ففارَقَني جارٌ (بأربَدَ) نافِعُ

---

(١) الرثاء في الجاهلية والإسلام: ص٥٠، المفضليات: ص٢٦٥.
(٢) ديوان الخنساء: ص٣٠.
(٣) لألأ العفر: حرّك الظبي ذيله.
(٤) ديوان لبيد بن ربيعة: ص٣٤.
(٥) المصدر نفسه.

وفي موقف آخر، يؤكد عطاء الأخوة الذي لا ينضب، حيث إنها رابطة قائمة على الحب والود والإعزاز والتفاهُم والصفح والمكانة الراسخة التي تؤثر فيه فرداً وفي أسرته مجموعةً، فيقول[1]:

لعمري لئِن كان المخبّر صادقاً ... لقد رُزِئت في حادث الدَّهرِ جَعفَرُ
أخاً لي، أما كل شيءٍ سألتُه ... فيُعطي، وأما كلّ ذَنبٍ فيَغفِرُ

وعندما فُجِعَ نهار بن تميم بأخيه (عتبان) أحس بتضعضع موقفه بين أقرانه وقومه وفقدان قوته وكبريائه بذهاب أخيه، الذي كان يعتبره ملجأ وحصناً منيعاً يأوي إليه في الأوقات الحرجة يتعاونان في مواجهة الصعاب فنسمعه يقول بحسرة وأسى وتفجع لفقد هذا الأخ المثالي في المعاملة الأخوية[2]:

(عتبان) قد كنت امرءاً لي جانب ... حتى رُزئتك والجدود تضعضعُ
فلمن أقول إذا تلم ملمةٌ ... أرني برأيك، أم إلى من أفزعُ
فقدتُ إخواني الذين بعيشهم ... قد كنتُ أُعطى ما أشاء وأمنعُ

وكذلك كان بين الشاعر محمد بن كعب الغنوي وأخيه (شبيب) تكافل اجتماعي حيث كان يعطيه ما يكفيه ويغدق عليه ويعينه، فلما فقده قال[3]:

أخي كان يكفيني وكان يُعينني ... على نائبات الدهر حين تنوبُ
فلو كانت الدنيا تُباع اشتريتُه ... بما لم تكن عنه النفوسُ تطيبُ
بعيني أو يُمنَى يديَّ وقيل لي ... هو الغانم الجذلان يوم يؤوبُ

---

(١) ديوان الحماسة للتبريزي: ج١، ص٤٣١.
(٢) ديوان الحماسة للتبريزي: ج١، ص٣٩٦، عن كتاب التعازي والمراثي، تحقيق د. ذو الفقار ملك ص٢٠٠.
(٣) جمهرة أشعار العرب: ص١٣٣.

ويشكو حكيم بن معية حالة الضعف والهوان والمذلة التي وصل إليها بعد أخيه (عطية)، وما يلاقيه من إهانات، وتطاول أعداؤه عليه وقد كان عزيزاً بجانب أخيه حيث كانا يشكلان فريقاً مُهاباً، فيقول[1]:

لو لم يفارقُني (عطيَّة) لم أَهُنْ ولم أُعطِ أعدائي الذي كنتُ أمنَعُ
سأبكيكَ حتى تُنفِدَ العينُ ماءَها ويشفي منِّي الدَّمعُ ما أتوجَّعُ

وما رَفض (المهلهل) الصلح مع قاتلي أخيه كليب إلا تنفيذاً لوصيته المشهورة (لا تصالح) ووفاءً لأخوته التي كانت تضرم نار الانتقام في أحشائِه، وفي البيتين التاليين نرى مدى الانفعال النفسي الذي تثيره الرابطة الأخوية بكل ما فيها من حب وتكريم وإعزاز ومكانة قوية تقوى فيها الأسرة والعشيرة والقبيلة، إذ يقول[2]:

نعى النُّعاةُ (كليباً) لي فقلتُ لهم مادت بنا الأرضُ أم زالت رواسيها
ليتَ السماءَ على من تَحتها وقَعَتْ وانشقت الأرضُ فانجابَت بِمَن فيها

ثم يصرح لنا في قصيدة أخرى، بعد أن هدأت نفسه، ورجع إلى عقلانيته، مبرراً انفعالاته وأحزانه وتفجعَه على أخيه، بتعداد صفاته مبيناً منافع الأخوة التي تعود على الإخوان كالأرباح التي يجنيها التجار، فيقول[3]:

سقاكَ الغَيثُ أنَّكَ كنتَ غيثاً ويُسراً حيثُ يُلتَمَسُ اليَسارُ
وكنتُ أعد قربي منك رِبحاً إذا ما عدتِ الربح التُّجارُ

ولعاطفة الأخوة القائِمة على الدم والأصل الواحد والمعاضدة والإعزاز مبعثاً للقوة والمنعة والمهابة دور إيجابي للتأثير النفسي في تسامُح الأخ مع

---

(١) ذيل النوادر: ص٧٥.
(٢) عن كتاب الرثاء في الجاهلية والإسلام: ص٢٦.
(٣) المصدر نفسه.

أخيه، إذا ما اقترف بحقه ما يستحق العقاب، فقد رويَ أن رجلاً قتل أخوه ابنه، فجيء بأخيه مكبلاً ليقتص منه، فلما وقف الرجل أمام أخيه، والسيف بيده، وهم أن يضرب عنق أخيه، تحركت دماء الأخوة في عروقه، وحالت العاطفة الأخوية سداً منيعاً، فتغلبَت عاطفة الوفاء والتسامُح الأخوي على كل ما عداه، فجال الرجل بفكره وعقله، ونظر ببصره وببصيرته فيما سيؤول له حاله إن قتل أخاه من بعد أن انفطرت كبده بابنه، وها هو على وشك أن يَفُتَّ في عضده بأخيه، ويقص جناحه بيده وسيفه، ويبقى أعزل منفرداً ضعيفاً، فألقى السيف وأقبل على أخيه يفك وثاقه وهو يُنشد[1]:

أقـول للنفـسِ تـأسـاءً وتعـزيـةً ... وإحدى يديّ أصابتني ولم تُرِدِ

كـلاهُمـا خَلَـفٌ مـن فقـدِ صـاحبِـه ... هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

وقيل لامرأةٍ أسرَ الحجاج زوجها وابنها وأخاها، اختاري واحداً منهم فقالت: الزوج موجود والابن مولود والأخ مفقود، فاختارت الأخ، فقال الحجاج: عفوت عنهم جميعهم لحسن أدبها وكلامها[2].

ولا عجب، فإن الأخوة عزيزة ورابطة متينة، لا يجحدها عاقل ولا يفرط بها إلا جاهل، فعندما قتل معاوية بن الشريد، بكاه أخوه صخر، بحرارة الأخوة وصدقها، لما بينهما من حب وتعاضُد وتآزُر، في مُجتمع لا مكان فيه لمتفرد أو ضعيف، ويهب صخر مقسماً أن يقتل كل أخوَين من قوم قتلة أخيه، بغية التفريق بين الإخوان، وذلك انتقاماً للتفريق بينه وبين أخيه معاوية ويبدو أنه كان أخاً أوحداً له ـ وكان أن تعاون أَخَوَانِ على قتل أخيه معاوية ـ ولنستمع إلى قوله في هذا الصدد[3]:

---

(١) ديوان الحماسة للتبريزي: ج١، ص٦٦.

(٢) محاضرات الأدباء: ج٢، ص٣٥٩.

(٣) ديوان الخنساء: ص١٢، ديوان الحماسة للتبريزي: ص٦٧، الكامل: ص٦٤٤.

إذا ذُكر الأخوان رقرقتُ عبرةً وحيَّيتُ رمساً عند ليَّة ثاويا
إذا ما امرؤ أهدى لِميِّت تحيّةً فحيَّاكَ ربّ الناس عنّي (معاويا)
وهوّن وَجدي أنّني لم أقل له كَذَبتَ، ولم أبخل عليه بِماليا
وذي أخوَةٍ قطَّعتُ أرحامَ بينهم كما تركوني واحداً لا أخاً لِيا

لقد تأثر معاوية بن أبي سفيان عندما جاءه خبر وفاة زياد بن أبيه وكان قد ألحقه بنسبه وأخوته، وقد سيطر على نفسه شعور بالتفرد بعد وفاة زياد (أخيه)، وكان ركناً قوياً يعتمد عليه أو جداراً عظيماً يستند إليه وقد هُدِم، أو كجناح طير قُص فضُعضِعَت قوته واستكان، فيسترجع ثم يقول وقد أُسقِطَ في يده[1]:

وأُفرِدْتُ سَهماً في الكنانة واحداً فيُرمى به أو يَكسِرُ السَّهْمَ كاسِرُه

وكذلك ينقل لنا الشاعر أبو زيد الطائي مدى إحساسه بعمق الأخوة التي تربطه مع شقيق نفسه وابن أمه عندما يرحل عنه ويتركه عاطفة أخوية مفعمة بالحب والإعزاز الصادق والشعور بالتفرد والضعف في مواجهة الصعاب فيقول[2]:

يا ابنَ أمّي وشقيق نفسي أنت خلّيتني لأمرٍ شديدِ

بدافع ما للأخوة من حب وإعزاز ومكانة راسخة تتحكم في عواطف الإخوان وتحرك مشاعرهم، لم يتخلص منها الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فعندما وقعت عيناه على أبي مريم الحنفي، قاتل أخيه زيد بن الخطاب، بادره بقوله: «لا يحبك قلبي أبداً، حتى تحب الأرض الدم المسفوح» والأرض لا تمتص الدم، لكنه يجف ويتجلب ولم تأخذ منه الأرض شيئاً.

---

(١) الكامل للمبرد: ص٧٢٢، التعازي والمراثي / تحقيق د. ذو الفقار ملك: ص١١٩.
(٢) أشعار أبي زيد الطائي: ص٥٩٢، عن الرثاء في الجاهلية والإسلام: ص١٩٣.

وللأخ أن يعاتب أخاه، إذا رأى منه تقصيراً أو تباعداً، ولم يقم بحق الأخوة أو يحترم حرمتها، بمخاطبة عواطفه الأخوية بغية استثارتها، وإيقاظها بتحريكها، ودغدغة وجدانه ومشاعره ليعيده إلى رشده ويقوده إلى حظيرة الأخوة وحصنها المنيع. فقد عاتب سيار بن هبيرة أخويه خالداً وزياداً عندما أحس بمجافاتهما له، وخروجهما على الروح الأخوية الأسرية، وقطعهما صلة الرحم والقربى وامتناعهما عن رفده ومساعدته، مما أحزنه موقفهما منه، فجاشت نفسه وأنشد قصيدة طويلة ضمنها عتابه على أخويه مبيناً ما يجب أن تكون عليه الأخوة من إعزاز وحب واحترام وتفان وتعاون ومواصلة شد الأزر والمعاضدة في ظل الأسرة الواحدة، وعدم الاستماع للوشاة، ومعاناة الأخ دون غيره من فراق أخيه، فيقول سيار بن هبيرة معاتباً أخويه[1]:

خليلي من دون الأخلاّء لا تكن ... مَحَبّتي لكما أنشوطةً مِن حبالیا
ولا تشقيا قبل الممات بصحبتي ... ولا تلبساني لبس من عاش قالیا
يؤذّنني هذا، ويمنع فضله ... وهذا (كمعنٍ) أو أشدّ تقاضيا[2]
كلانا غَنِيٌّ عن أخيه حياته ... ونحن إذا مِتنا أشدّ تغانیا
أ (خالد) فامنع فضل رفدك إنما ... أجاع وأعرى الله من كنت كاسیا
رأيتُكَ تقفيني بكل عظيمةٍ ... عَرَتْكَ، وتُقَفّي باللیّان سوائیا
وتؤثر من لو أنك متّ لم يَجِدْ ... كوجدي، ولا يبليك مثل بلائیا
إذا نحن داوانا المؤسّون بالأسى ... شَفَوْهُ، ولا يُشفي المؤسّون ما بیا
أخاكَ الذي إن زلّت النعل لم يقل ... تَعِسْتَ، ولكن عل نعلكَ عالیا[3]

---

(١) ذيل الأمالي والنوادر: ص٧٢، ٧٣.

(٢) يؤذّنني: يحرمني.

(٣) علَ: أي أعْلَ وارتفع.

وعوراء قد قيلت فلم أستمع لها ولا مثلها من قبل من قالَها ليا
فأعرضتُ عنها أن أقول لقيلها جواباً وما أكثرتُ عنها سؤاليا
وإنّي لأستحييكَ والخَرْقُ بيننا من الأرضِ أن تلقى أخاً لي قاليا
وإنّي لأستحي أخي أن أرى له عليّ من الحقّ الذي لا يرى ليا

إنه دستور أخوي يزخر بالقيم الأخلاقية الأخوية والإنسانية، التي ارتوت من صافي نبع الأخوة الصادقة التي تحس بأدق الجزئيات التي تحض على جميع الصلات الأسرية ما عدا صلة الأخوة عميقة الجذور المتأصلة في ظل الأسرة. دستور ينبض بالإعزاز والكرامة والمكانة الأخوية التي لا غنى عنها لأخ عن أخيه في شد الأزر والمعاضدة والاحتماء ومواجهة الصعاب والتعاون عليها، إنه دستور ما يجب أن يكون بين الأخوة من العلاقات الوطيدة لبقاء الأسرة متماسكة مترابطة متراحمة.

وعتب يزيد بن عبد الملك على أخيه هشام، عندما بلغه أنه يتمنى له الموت أسفاً على ما وصلت إليه الأخوة بينهما، وكان الأحرى أن تكون رابطة قوية عزيزة، فأنشأ قصيدة وبعثها إليها، يقول منها[1]:

تَمنّى رجالٌ أن أموت وإن أمُتْ فتِلكَ سبيلٌ لستُ فيها بأوْحَدِ
وقد علموا لو ينفع العلمُ عندهم لئِن متُّ، ما الدّاعي عليَّ بِمخلَّدِ
فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى تجهّز أخرى مثلها، فكأن قَدِ

فلما بلغ الكتابُ هشاماً، أجابه بقصيدة سيطرت عليها مشاعر الأخوة العزيزة الأصيلة كعادته وضمنها من الحكمة والبلاغة التي تنبع من مناهل رابطة الأخوة ومكانتها بين الأخوان وتسامحهم، والصفح عن زلاتهم لتظل الأخوة سائدة، سليمة من كل شائبة، يقول[2]:

---

(١) ذيل الأمالي والنوادر: ص٢١٨.

(٢) المصدر نفسه.

ومن لا يُغمضُ عينَه عن صديقه وعن بعض ما فيه يَمُت وهو عاتِبُ
ومـن يتتبَّـع جـاهـداً كـل عثـرةٍ يجدها، ولم يسلم له الدهر صاحبُ

ويقبل يزيد عذر أخيه، ويبعث له الرد ضمن قصيدة أخرى تحمل من المعاني السامية التي قامت عليها أسس الأخوة الصادقة فاكتسبت مكانتها الراسخة التي لا تتزعزع، وضمنها ما يجب أن يكون عليه حال الإخوان من الوفاء والإخلاص والتفاني، ومنها يقول[1]:

وإنّي أخوكَ الدائِم العهدِ لم أحِدْ إن أبْزاكَ خِصمٌ أو نبا بك مَنزِلُ
أحارب من حارَبْتَ من ذي عداوةٍ وأحبِسُ مالي إن غَرِمتَ فأعقِلُ
ستُقطَعُ في الدنيا إذا ما قطعتَني بيمينـك، فـانظـر أيَّ كـفٍّ تتبـدَّلُ
إذا أنتَ لم تُنصِف أخاكَ وجَدتَهُ على طَرفِ الهجرات إن كانَ يَعْقِلُ
وفي الناس إن رثت حبالك واصلٌ وفي الأرض عن دارِ القِلَى متحوِّلُ
ويركب حدّ السيف من أن تضعه إذا لم يكن عن شفرة السيف مِزْحَلُ

وبهذه المعاتبة المؤثرة، تصافى الأخوان، وفي هذه الحكاية التالية نجد أن الأخ أراد هجاء أخيه يوماً لسوء طبعه ولؤمه، فقال له أخوه: إنك لا تستطيع هجائي ونحن أبناء أم واحدة وأب واحد وأسرة واحدة، فقال له: سأهجوك وحدك، ثم أنشَد[2]:

أبـوكَ أبـي وأنـت أخـي ولكـن تفـاضلَـت الطَّبـائـع والظـروفُ
وأمُّـك حيـن تُنسَـب أمُّ صِـدْقٍ ولكـن لابنهـا طَبْـعٌ سَخيـفُ

انظر كيف كان جواب الأخ المراد هجائه، حيث قال لأخيه لا تستطيع الهجاء ونحن فرعان لأصل واحدة وأسرة واحدة، فما يصيبني يصيبك من خير أو شر ولكن أخاه كان أديباً واستطاع توظيف اللغة والتلاعُب بالألفاظ

---

(١) ذيل الأمالي والنوادر: ص٢١٨.

(٢) محاضرات الأدباء: ج١، ص٣٦٤، والأمالي: ج٢، ص٨٢.

لهجائه، ونراه في مرة أخرى يتلاعب بالألفاظ ويوظف قدرته اللغوية في تسليط الهجاء على شخص أخيه فقط فيقول[1]:

غلامٌ أتاه اللؤم من شطر نفسه ولم يأته من نَحو أمٍّ ولا أبِ

وتجلت الأخوة في أحلى معانيها من الصفح والتسامُح، عندما أجاب سيدنا يوسف عليه السلام إخوته، عندما سألوه عما هو فاعل بهم بعد أن نجاه الله من كيدهم، وأصبح واحداً من كبار المسئولين والمقربين إلى السلطان، فإنه بدل أن يجازيهم على ما فعلوه به وهو قادر على ذلك، نراه يفيض عليهم من عطف الأخوة وحنان قلبه وفؤاده، مودة وتسامحاً وغفراناً لما اقترفوه بحقه، وذلك بدافع من الأخوة الحقة التي يؤمن بها هو ويقدرها، فهم أبناء رجل واحد وأصلهم واحد ورحم واحد وقد عافاه الله، وآثره عليهم فقال لهم في القرآن الكريم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] صدق الله العظيم.

وكما أن الأخ الذكر، احتل مكانة وطيدة في قلب أخيه، فإن الأخت الأنثى تبوأت مكانة عزيزة ومنزلة في قلب أخيها ونفسه أيضاً، فأغدق عليها من عطفه وحنانه، وأحاطها بحسن رعايته وعنايته، وبسط من حولها حمايته وبذل من نفسه وماله وروحه لصيانتها من كل مكروه، فأعانها على فقرها، وكان لها ملجأً وملاذاً وحصناً منيعاً وركناً شديداً تأوي إليه كلما دعت الحاجة بدافع من واجب الأخوة العزيزة، وإعزازاً للأخت وتكريماً لها، فإنها أخت من أبٍ أو أم وقد نبتا في أسرة واحدة ذات رحم وترابط.

لذلك يفعل الأخ كل ذلك لأخته بدافع الأخوة الصادقة، والمعزة المخلصة والمراحمة التي يكنها الأخوان لبعضهم، وبادلته الأخت وفاءً بوفاء، وحباً بحب، كما هو معروف عن المرأة العربية، صادق إخلاصها

---

(١) محاضرات الأدباء: ج١، ص٣٦٤، والأمالي: ج٢، ص٨٢.

ووفائها لأهلها وذويها وقومها وتفانيها في سبيلهم، وما قصة الخنساء مع أخيها صخر عنا ببعيدةً، فقد جاء في ديوانها أنها أتت عائشة أم المؤمنين، وهي تلبس الصدار، تدب على عصا من الكِبَر، فقالت لها أم المؤمنين: إيه يا خناس، تلبسين الصدار وقد نهى عنه الإسلام؟ فما الذي بلغ بك ما أرى؟ قالت: موت أخي صخر، قالت: ما دعاك لذلك إلا صنائع منه جميلة، قالت: نعم، إن لشعاري سبباً وذلك أن زوجي كان متلافاً للأموال، يقامر بالقداح، فأتلف فيها ماله، وأراد أن يُسافر للغزو، فقلت له: أقم، وأنا آتي صخراً فأسأله، فأتيته وشكوت له حالنا، فشاطرني ماله، فانطلق زوجي وقامر به فقُمِر، فعدت العام المقبل إلى أخي صخر، فشاطرني ماله، فأتلفه زوجي، حتى إذا كانت الثالثة أو الرابعة، خَلَت بصخر امرأته، فعذلته، ثم قالت له: إن زوجها مقامر، لا يقوم له شيء، فإن كان لا بُد من صلتها، فأعطها أخس مالك، فإنما هو متلف، والخيار والشرار فيه سيان، فقال لا والله، لا أعطها إلا خيارها، فهي حَصان قد كفتني عارها وأنشد يقول[1]:

والله لا أبخسُهـــا شـــرارهـــا ... وهـي حَصـانُ قـد كَفَتْنـي عـارَهـا

ولـو هلكـتُ خـرّقـت خِمـارَهـا ... واتَّخـذَتْ مـن شعـارٍ صـدارَهـا

ثم شطر ماله، وأعطاني أفضلها، فلما هلك، فوالله، لا أخلف ظن أخي فِيَّ ولا أكذب قوله، فاتخذتُ هذا الصدار ما حييت.

والسيدة عائشة أم المؤمنين نفسها، وقفت على قبر أخيها عبد الرحمٰن بن أبي بكر، وقالت والله لو حضرت وفاته لم أقف على قبره، لكن الرحم والقربى كانت أقوى، فحركت فيها العاطفة التي جعلتها تقف هذا الموقف التراحمي، ثم تمثلت بقول الشاعر متمم بن نويرة الذي اشتهر بحرقته وأساه ولوعته على فراق أخيه مالك[2]:

---

(١) شرح ديوان الخنساء: ص١٠.

(٢) المفضّليات: ص٢٦٧.

وكنا كندماني جذيمة حقبةً من الدَّهر حتى قيل لن يَتَصدَّعا
فلما تفرّقنا كأني ومالكاً لطولِ اجتماعٍ لم نَبِتْ ليلةً معا

وعندما قيل للخنساء: صفي لنا أخويك صخراً ومعاوية، فقالت: كان صخر جنة الزمان الأغبر وزعاف الخمير الأحمر، وكان معاوية القائل الفاعل، وقيل لها: فأيهما أسنى وأفخر؟ قالت: أما صخر فحر الشتاء، وأما معاوية فبرد الهواء، وقيل لها: أيهما أوجع وأفجع؟ قالت: أما صخر فجمر الكبد، وأما معاوية فسقام الجسد، وأنشَدَت بإحساس أخوي[1]:

أسدان مُحمَرّا المخالِبِ نَجدةً بَحَران في الزمان العقوبِ الأنْمَرِ
قَمَران في النّادي رفيعا مُحْتَدٍ في المجد فرعا سؤود متخيَّرِ

هرب السليك بن السليكة يوماً من مطارديه، وتوغل بين بيوت الحي حتى رأى أجمل البيوت فدخله فكان بيت (فكيهة بنت قتاد) رئيس القوم وكان لها عشرة من الأخوة الصناديد، فاستجارها من بعض قومها الذين يطاردوه، فأجارته ولم تعرف أنه عدو لقومها ومطلوب لهم ومهدور دمه عندهم، فلما أدركه القوم، وأرادوا دخول البيت قسراً للقبض عليه، قامت (فكيهة) دونه، وكشفت عن خمارها لتمنعهم (وهذه عادة العرب يغضون أبصارهم عندما تقف المرأة حاسرة الرأس أمامهم) وصاحت بأخوتها، فهبوا لنجدتها عند سماعهم صوتها، ودفعوا القوم عن بيت أختهم، إقراراً منهم بإجارتها حتى أمكنوه من النجاة والهرب، فقال السليك يمدحها وأخوتها:

لعمر أبيك والأيّام تُنمي لنعم الجار أختُ بني عوارا
من الخَفَرات لم تفضح أباها ولم ترفع لأخوتها شنارا
وما عَجزَت (فكيهة) يوم قامتْ بنصل السيف واستلّوا الخِمارا

(١) ديوان الخنساء: ص٦٣.

وهكذا نجحت (فكيهة) بإجارتها بمعاضدة أخوتها وغوثهم لها ونجدتهم إياها وتنفيذ إجارتها عندما لم يُجدِها كشف الخمار. وقد تعرضت الخنساء لموقف ضغط وإكراه أخيها الشقيق معاوية على الزواج من دريد بن الصمة صديقه وحليفه، فعارضت الزواج وفق رغبة أخيها معاوية معتمدة على معاضدة أخيها صخر الذي كان يحيطها بحمايته ويبذل لها من ماله ونفسه، فهو عندها الحصن الذي تلوذ به وتحتمي من كل مكروه، فقالت معلنة رأيها بالرفض: (ما دام أخي صخر حياً فلن يكرهني أحد أو يرغمني على شيء لا أريده) ثم أنشدت قصيدة منها هذا البيت[1]:

فـإلاَّ أعـطَ مـن نفسـي نصيبـاً فقـد أَودَى الـزمـانُ إذاً بِصَخْـرِ

ثقة كاملة في الأخ صادق المحبة والأخوة والرحم الأسري المترابط المتماسِك، واعتماد راسخ، والأخ ردءٌ قوي ومتكأ صلب، تجد عنده الأخت الأمان والاطمئنان والاستقرار، ومن هنا كان للأخت مواقف كثيرة ومشهورة في الشعر العربي، تعبر فيها عن مدى وفائِها وتقديرها لمكانة أخيها، فتفيض عليه من حنانِها وعطفها الفطري الغريزي الذي فطر الله سبحانه قلوب عباده عليه.

فحين تنعم النظر في كلمة (أخي) التي رددتها عمرة بنت مرداس بكثرة في مقطوعتها تحس بسحر هذه الكلمة وما توحيه وما تبثه من معاني الحزن والتفجع التي تعبر عن مكانة الأخ وإعزازه وقد استشهد في معركة القادسية، إذ تقول[2]:

أعينـيَّ لـم أختلكمـا بتميـانـةٍ أبَـى الـدَّهـر والأيـام أن تَصْبِـرا
وما كنت أخشى أن أكون كأنني بعيـرٌ إذا يُنعـى أُخـيَّ تَحشَّـرا
تـرى الخصـم زوراً أُخَـيَّ مهـابـةً وليس الجليس عن أُخَيَّ بأزورا

(١) ديوان الخنساء: ص٨.

(٢) ديوان الحماسة للتبريزي: ج١، ص٤٥٨.

إن تكرار كلمة (أُخَي) تفيد المبالغة في الحزن والألم والحسرة والتفجع على هذا الأخ المُهاب الجانب فاستحق منها البكاء مدى الدهر والحياة لما له من مكانة وإعزاز.

أما زينب الطثرية، فتضفي على أخيها (زيد) من منطلق الأخوة العزيزة صفات الشجاعة والصرامة عند الجد، إلى جانب ما يتمتع به من صفات رقة القلب، ولين الجانب ورقة العريكة، وحلاوة المعشر، فكلما قصدته في حاجة لها، يغدق عليها من حنان الأخوة وعطفها ويبذل لها من الحماية ورفع الروح المعنوية والمادية بدافع الرحم والترابط الأسري ما أمكنها أن تقول[1]:

أرى الأثْل من وادي العقيق مجاورى ... ومقيماً وقد غالت (يزيد) غوائله
يسرّك مظلوماً ويرضيك ظالماً ... وكلّ الذي حملته فهو حامله
إذا جدَّ عند الجدّ أرضاك جدّه ... وذو باطل إن شئتَ أرضاكَ باطله
كريمٌ إذا لاقيته متبسّماً ... وإمّا تولّى أشعث الرأس جافله
ولو كنتُ في غلّ فبُحتُ بلوعتِي ... إليه للانَتْ لي ورقّت سلاسله
ولمّا عصاني القلب أظهرت لوعةً ... وقلت ألا قلب بقلبي أبادله

كذلك تفجعت الفارعة بنت طريف على أخيها، فلبست عدة الحرب انطلاقاً من نصرة الرحم وتماسُك الأُسرة وترابطها فنراها قد تقلدت السيف وامتطت حصانها وقادت الرجال من أنصار أخيها الذين جمعتهم للأخذ بثأره وواجهت يزيد بن مزيد قاتل أخيها بكل شجاعة وقوة بأس لتنتقم له، ولكنه هزمها وتركها لأنها امرأة ومن قومه كذلك، فوقفت على قبر أخيها وهي مهزومة مسربلة بسلاحها وقد أخفقت في نصرته والأخذ بثأره فأنشدت على قبره والأسى يقطر من قلبها لفقد هذا الأخ الفارس المقدام الذي طالما اعتزت به وفاخرت:

---

(١) الأمالي للقالي: ج٢، ص٨٥.

فيا شَجَرَ الخابور مالَكَ مورقاً ... كأنكَ لم تحزنْ على ابن طَريفِ
فتىً لا يحبّ الزاد إلاّ من التّقى ... ولا المال إلاّ من قنا وسيوفِ
ولا الخيل إلاّ كلّ جرداءَ صَلْدَمٍ ... وأجرَدَ ضَخمِ المنكبينِ عطوفِ
فقدناه فقدان الربيعِ ولَيتَنا ... فَدَيناهُ مِن سادتنا بألوفِ
حليفُ النّدى إن عاشَ يرضى بنا النَّدى ... وإن مات لا يرضى النَّدى بحليفِ
فإن يكُ أرداه يزيد بن مزيد ... فيا ربّ خيّل فضّها وصفوفِ

وإن رأت الأخت تهاوناً من أخوتها الباقين أو من قومها في أخذ ثأر أخيها تثور ثائرتها انطلاقاً من معزة الأخ ومكانته، فتقف تحرض أهلها وقومها وتستحثهم للانتقام، وتحرك فيهم الحمية بألفاظ قد لا يحبون سماعها. فهذه كبشة بنت معد بن يكرب، تقذف أخاها عمراً بأبشع النعوت، عندما علِمَت أنه ينوي مسالمة قاتل أخيها (عبد الله) وكأنه نسي صلة الرحم والرباط الأسري والقرابة اللصيقة، وتقول[1]:

ودَعْ عنكَ عمراً إن عمراً مسالِمُ ... وهل بطنُ عمرو غيرَ شبر مظلمِ
فإن أنتم لم تقتلوا واتّديتموا ... فمشّوا بآذان النِّعامِ المصَلّمِ
ولا تشربوا إلاّ فضُولَ نِسائِكُم ... إذا أنهلَتْ أعقابهنَّ من الدّمِ[2]
جَدَعتُم بعبد الله أَنْفَ قَوْمِهِ ... بني مازن أن سبّ ساقي المخرّم

ونكتفي بهذا القدر من شعر الشعراء الإخوة (إخوان وأخوات) أشقاء كانوا أو أبناء علات أو أقراناً، وهو فيض من غيض، وكله يتحدث عن إعزاز الأخ أو الأخت انطلاقاً من مكانة الأخوة وصلة الرحم وقوة الرابطة الدموية ذات الأصول الواحدة التي تعود على الأسرة بالفائدة والتماسُك والترابُط وشد الأزر والتعاضد وخاصة عندما يتحلى الإخوان بمكارم الأخلاق

---

(١) الأمالي للقالي: ج٣، ص١٩٠.
(٢) أَنْهلَتْ: تلطخت.

والصفات الطيبة القائِمة على العقيدة الإيمانية التي تحمي الفرد وتحصنه من الانحرافات وتفرض عليه واجب المناصرة الأخوية سواء كان الأخ ظالماً أو مظلوماً كما قال عليه السلام: «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**» فنصرة الأخ واجبة خاصة إذا كان لإنقاذه من انحراف أو انجراف في تيار الانحلال الأخلاقي الذي ابتلانا به الغرب الهابط مفكك الأسر، وعلى الأخوان تبادل الإرشاد والتوجيه وتقبله بقبول حسن والتعاضد والتآزر للوقوف بوجه غزو التيار الغربي بحزم وقوة لحماية أنفسهم وأسرهم وأبنائهم، عندها ستكون الأسرة متماسكة مترابطة وطيبة في مجتمع طيب إن شاء الله.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مكانة الأزواج في الأسرة

الزواج شركة قائِمة على الودّ والرحمة وحُسن المعاشرة ومكارم الأخلاق، لتكوين أسرة جديدة في بناء المجتمع الكبير، كما أن الزواج تعاون وتكاتف، رباطه التعاضُد والتحالُف والنصرة، في مواجهة تقلبات الحياة وعضّات الزمان، وبهذا المعنى تقول الرباب بنت امرئ القيس في معرض رثائها زوجها الحسين بن علي رضي الله عنه[1]:

قد كنتَ لي جبلاً ألوذُ به ... وكنتَ تَصحَبُنا بالرَّحْمِ والدّينِ

فالزواج بهذه المفاهيم رابطة جديدة من روابط القرابة، بين الأسر البعيدة، كما أنه يوطّد أواصر القرابة بين الأسر القريبة، ويقضي على العداوة والشحناء (إنْ وُجِدَت)، فقد قيل في المصاهرة: (إنّها لُحمَة قويّة بين الأفراد والعشائر) يقول جلّ وعلا في القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، بهذا المفهوم فإن المرأة والرجل بعضهم من نفس بعض وهم أقرب وألصق من بعضهم ببعض والمصاهرة من الإنصهار، لذلك وجب التأكّد من الصحة والسلامة واقتراب الأرواح من بعضها وتآلفها، حتّى تكون علاقة يسودها الحب والرحمة والرأفة والتفاهُم، ويكون هناك أولاد ينعمون بمثل هذا الجو المفعم بالطمأنينة. قال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]، والنسب: هو القرابة جهة الذكور، والصهر: القرابة من جهة الإناث. وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥]، صدق الله العظيم.

---

(١) منه أوائل من النساء: ص٣٠٠.

لذلك، حقّ للرجل والمرأة التحقيق والتدقيق قبل اصطفاء شريك الحياة لكل منهما، وربط النفس بقرابة جديدة تخلق آثاراً عميقة في حياة كل منهما تنعكس على كل أفراد الأسرة، فينظر الرجل فيمن يوكل إليها بيته، وإنتاج ولده، حيث قال عليه السلام: «**تكاد المرأة أن تلد أخاها أو أباها**»، وقال أيضاً: «**انظر في أيّ شيءٍ تضع ولدك، فإنّ العرق نزّاع**». وبهذا المعنى يقول الشاعر[1]:

إذا تَـزَوَّجْـتَ فكُـن حـاذِقـاً واسـألْ عـن الغُصـنِ ومَنْبَتِـهِ

وقول آخر[2]:

إذا لم يكن في منزل المرء حُرّةٌ تـديـره ضـاعـت مصـالـح داره

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]. والرسول عليه السلام يقول: «**اظفر بذات الدين تَرِبَتْ يداك**»[3]. وذلك لأهمية وجود امرأة صالحة ذات خلق ودين في بيت الرجل تتعهد بيته وأولاده وتكون صاحبة دراية وفطنة وعلم بأمور تربية الأبناء وتلقينهم مبادى دينهم وترشدهم إلى القيم الأخلاقية والسلوكية، وكذلك المرأة، فإنّها تحرص أن تكون في بيت يكون صاحبه رجلاً ذا خلق ودين حتّى تكون المسئولية المشتركة متكافئة .

اختلفت نظرة الرجل والمرأة في المواصفات المستحبة لكل منهما في الآخر، إذعاناً لسلطان القلب والهوى. وهنا شاعر يرسم لفتاة أحلامه صورة جميلة فيتمنّى أن تكون كما يقول[4]:

---

(١) المستطرف: ج٢، ص٢٤٨.

(٢) المستطرف: ج٢، ص٢٤٩.

(٣) جواهر البخاري: ص٤٢٢، وصحيح البخاري: ج٥، ص١٩٨٥.

(٤) المستطرف: ج٢، ص٢٥٥.

هيفـاءُ فيهـا إذا استقبلتهـا صلـفٌ عيطاءُ غامضة الكعبين معطارُ[1]
خور من الخفرات البيض لم يرها بساحةِ الدارِ لا بعلٌ ولا جارُ[2]

ويصف الأعشى زوجته التي أُعجب بها فيقول:

لم تمشِ ميلاً، ولم تركبْ على جَمَلٍ
ولـم تـرَ الشمـسَ إلاّ دونهـا الكلـل

وهذا الشاعر يختصر الصفات المستحبّة في زوج المستقبل، فيأتي قوله دستوراً وإرشاداً وتوجيهاً لكل من ينوي الزواج[3]:

صِفَـاتٌ يُستَحَـبُّ الشَّـرْع خطبتهـا جَلَـوْتُها لأولـي الألبـاب مختَصِـرا
صبيّـــةٌ ذاتُ ديـــنٍ زانـــه أدَبٌ بِكْرٌ ولودٌ حَكَتْ في نفسها القَمرا
غريبةٌ، لم تكن من أهل خاطبها تلك الصّفات التي أجلو لِمَن نَظَرا

ويبدي الشنفرى إعجابَه بعفّة زوجته وإجلالها فينشد:

أميمـة لا تُخْـزي ثَنـاهـا حُلْيهـا إذا ذُكِـرَ النسـوان عَفَّـتْ وجلَّـتِ

وأكثر ما يُعجب معن بن أوس في زوجته أنه واثق من أمانتها له أثناء غيابه:

لعمـرك مـا عِـرْسـي بـدارٍ وضيعـةٍ وما بعلُها إنْ غاب عنها بخائف

أما رسول الله ﷺ فيُجمل صفات خير النساء بقوله: «**خير النساء التي إذا أُعطيَتْ شكرَت، وإذا حُرِمَت صَبرَتْ، تسرُّكَ إذا نظَرت، وتطيعُكَ إذا أمرت وتحفظك إذا غبت**»[4]. وأوصى أب ولده عندما أراد الزواج فقال:

---

(١) المعطار: كثيرة استعمال العطور.
(٢) البَعْل: الزوج.
(٣) المستطرف: ج٢، ص٢٤٩.
(٤) صحيح مسلم: ج٥، ص١٧٨.

«إيّاك والحنّانة، والمنّانة، والأنّانة، والرَّقوب العَضوب القَطوب»[1]، والحنّانة: التي لها ولد من غيرك، والمنّانة: التي تمنّ عليك بمالها، والأنّانة: التي تتأوّه وتئن على زوجها السابق، والرقوب: التي تراقب لفضح العيوب، والقطوب: المقطبة بين الحاجبين دائِماً.

هذا بعض ما يدور في خلد الرجل عن المرأة عندما يكون خاطباً، لكنه عندما يكون أباً، فإننا نرى معظم الاباء يفاضلون بين المتقدمين لخطبة بناتهم، بالميل إلى الواقعية والنظر بعين المصلحة بعيداً عن التحليق في أجواء الأحلام، فيختارون الكفء من الرجال، والكفء: هو المساوي في النسب والحسب، لذلك نرى هذا الأب يوصي أولاده من بعده فيقول: «**أنكِحوا الكفء القريب، فإنه عزّ حادث**»[2]. وقيل: «**من ارتضيتم دينه وأخلاقه فزوّجوه**» لأنه إذا أحبّها أكرمها، وإذا كرهها لم يظلمها.

روي أن رجلاً زوّج ابنته من ابن أخيه، فقال عندما قَدِمَ إليه: «**مرحباً بابنٍ لم ألده، أقرب قريب، خَطَب أحبّ حبيب، لقد زوّجتكما وأنت الأعز عندي، وهي الأنوط بقلبي، فأكرِمها، يَعْذُبْ على لساني ذكرك، ولا تهنها، فيصغر عندي قدرك، فلا تباعد بين قلبي من قلبك**»[3].

عندما زوَّج الزبير بن عبد المطّلب ابنته أم الحكم أنشد[4]:

يـــا حبّـــذا أمُّ الحكَـــم إنّهـــا ريـــمٌ أجـــم
يـــا بعلهـــا مـــاذا يشـــم ســـاهـــم فيهـــا فسَهَـــم

وللمرأة أيضاً نظرة حالمة في هيئة فارس الأحلام ورب أسرة المستقبل، ولها تمنّيات بالتحليق في أجواء الخيالات تارة وبالغرق في بحور الحلي

---

(١) محاضرات الأدباء: ج٢، ص٢٠٤.
(٢) المستطرف: ج٢، ص٢٤٥.
(٣) محاضرات الأدباء: ج٢، ص٢١١.
(٤) الأمالي للقالي: ج٢، ص١١٦.

والحلل تارة أخرة، فتتمنّى أن يكون زوجها غنياً كريماً أنيقاً شاباً في مقتبل العمر، فتبوح هذه الفتاة بصفة فتى أحلامها بقولها:

إنَّ الفتـــــاةَ تحـــبّ الفتـــــى كحُـــبِّ الـــرِّعــاء، أنيــق الكَـــلا

وأخرى تحنّ إلى زوجٍ يكون شاباً من ذوي الحسب والوفاء والمروءة، وهي صفات أقرب للتراحم والتوادد وتماسُك الأسرة فتقول[1]:

إلـى فتـى مـاجـد الأعـراق مقتبـل سَهْل المحيّا، كريم غير ملجاج
تُنميـه أعـراقُ صـدقٍ حيـن تنسبـه أخـي وفـاءٍ عـن المكـروب فـرّاج

أما ابنة ذي الإصبع العدواني، فتتمنّى صراحة أن يجمع زوجها الشباب والغنى والكرم حتّى يدوم الزواج وتدوم العشرة ضماناً لأسرة متراحمة فتقول[2]:

ألا ليتَ زوجي من أُناس ذوي غِنى حديثُ الشباب طيّب الرّيح والعطْرُ
ألا ليتــه يمــلأ الجِفــانَ لضيفــه له جفنة يشقي بها النّيب والجُزُر

وهذه المرأة تجتهد في تصنيف الأزواج إلى نوعين من وجهة نظرها فتنشد[3]:

الزوج زوجان، ذو مالٍ يُعاش به وذو شبابٍ، شديد المَتْنِ كالمرس

كما أننا نرى الخنساء من خلال شعرها ترسم صورة للرجل الأنموذج، الذي ينال إعجاب الجنس الآخر، من وجهة نظر المرأة بصفة عامة، فأبرزت من خلال رثائِها لأخيها صخر الصفات المستحبة في الرجل، كونه رجلاً والشمائل اللافتة للنظر التي تنال إعجاب المرأة، فنراها تذكر في مواقع كثيرة أنه شاب، وشجاع، وجميل، وعفيف، وجميع هذه الصفات

---

(١) المستطرف: ج٢، ص١٨٦.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.

تخلق من الرجل رب أسرة متماسكة متحابّة متراحمة ويقودها إلى الطريق الصحيح[1]:

مثل السِّنان تُضيء الليلَ صورتُه ... جَلْد المريرة حُرٌّ وابْنُ أحرار
مثل الرّدَينيّ لم تنفد شبيبتُه ... كأنه تحت طيِّ البُرْد إسوار
جَلْدٌ جميلُ المحيّا كاملٌ وَرِعٌ ... وللحروب غداةَ الرّوْع سعّار
لم ترَه جارةٌ يمشي بساحتها ... لريبةٍ حين يُخلي بيته الجارُ

وتترجم هذه الشاعرة الحرة أقوالها لأفعال فترفض الزواج من (دريد بن الصمة) سيّد قومه حين عرض ذلك عليها أخوها معاوية فرفضت بإباء وقد أجابت أباها بصراحة تامة وجرأة نابعة من رأيها في الزوج الذي تحب، عندما أخبرها بأمر خطبتها بقولها: يا أبت أتراني تاركة بني عمي عوالي الرماح وناكحة شيخ بني جشم هامة اليوم أو غد، كما ترفض محاولات أخيها معاوية لإرغامها على قبول الزواج بصديقه الكهل.

تأتي هذه الاجتهادات والتمنّيات من كلا الجانبين (الرجل والمرأة) قُطبي الأسرة، انطلاقاً من مفهومين اثنين:

الأول: الميل الفطري الذي فطره الله في عباده، وذلك لحكمة بليغة أرادها الله سبحانه لاستمرار الحياة وعمارة الكون، ولا عجب أن يتصرف كل منهما في إطار معنى الآية الكريمة: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤]. فقدّم الشهوة للنساء على جميع الشهوات الدنيوية، وذلك لقربهن من القلوب، وبهذا المعنى ينشد الشاعر[2]:

وعلى القلوب من القلوب شواهدٌ ... بالودّ قبل تشاهُد الأرواحِ

---

(١) ديوان الخنساء: ص٤٥.

(٢) محاضرات الأدباء: ج٢، ص٢٩.

وقول الآخر:

ألا حبّذا مَنْ ليس يعدل قربه لديَّ وإنْ شطَّ المقامُ نعيمُ

وكذلك المرأة الشاعرة تنشد مخاطبة من يهواه قلبها وتألفه نفسها فتقول:

وأنت هَوى النفس من بينهم وأنت الحبيب وأنت المطاع

وأخرى تنشد فيمن ألفته روحها ومال إليه فؤادها بقولها[1]:

يا زين من وَلَدَتْ حواء من رجل لولاكَ لم تَحْسن الدنيا ولم تَطب

الثاني: أثر الرابطة الزوجية في حياة الزوج والزوجة، كونها قرابة جديدة وارتباطاً لبناء أسرة متماسكة قائمة على التراحم بين أفرادها يتشاركون في مسئولية قيادتها، ويحرص كل منهما على ترسيخ جذورها، ومدّها بالقوة لتنمو وتمتد، .وتجنيبها المضاعفات السلبية التي تطال أطراف المصاهرة بالوهن، خاصة الطرف الأضعف وهم الأبناء وتضررهم وضياعهم، كما يصوره الشاعر بقوله[2]:

ليس اليتيم من انتهى أبَواه من همّ الحياة وخلَّفاه ذليلا

إنَّ اليتيم الذي تلقى له أُمّاً إمّا تَخلّت أو أباً مشغولا

فحرص كل من المرأة والرجل على تحقيق نسبة معقولة من الصورة المتخيّلة عن الآخر، ويصبو كل منهما إلى بلوغها في إطار من المحبّة والألفة وحسن المعاشرة، ويكفي أن نغوص في أعماق نفسية هذا الشاعر لنرى كم هو سعيد، وقريرة عينه ونفسه بقرب من يهوى وينشد معبراً عن سعادته الغامرة عندما ينظر إلى من يحب:

نَظرتُ إليها نظرةً ما يسرّني بها حُمْر أنعام البلادِ وسودها

---

(١) محاضرات الأدباء: ج٢، ص٢٩.

(٢) نقلاً عن كتاب تربية الأولاد في الإسلام: ج١، ص١٤٢.

وهذه الشاعرة أيضاً لم تخرج عن المألوف عمّا بين المرأة والرجل والفطرة التي فطرها الله يميل كل منهما للآخر إذ نسمعها تنشد:

لأنتَ عندي وإن ساءَت ظنونُكَ بي أحلى من الأمْن عند الخائف الوجل

وبنفس المعنى والأحاسيس والمشاعر التي تساوت عند تلك الشاعرة نرى الشاعر يقول:

لأنتِ أحلى من لذيذ الكرى ومن أمانٍ ناله خائفُ

وهذه الشاعرة المحبّة تقول[1]:

وأنت هوى النفس من بينهم وأنت الحبيب وأنت المطاع

أمّا سيّدنا عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصدّيق، فقد أحب زوجته عاتكة بنت عمرو حباً شديداً، إلى أن ألْهته عن تجارته وعن الصلاة الجامعة، فغضب والده لهذه الحالة وعزم عليه أن يطلقها، وفعلاً طلّقها إرضاءً لوالده، لكنه يعبّر عن حزنه الشديد على هذه الحبيبة التي ليس لها ذنب فيقول[2]:

فلم أرَ قبل اليوم مثلي طَلَّقَ مثلها ولا مثلها في غير شيء يُطَلَّقُ
وخُلُقٌ عفٌّ ودينٌ ومحتَدٌ وَخَلقٌ سَويّ في الحياءِ ومنطقُ
فوالله لا أنْساكِ ما ذرَّ شارقٌ وما ناح قمريُّ الحمام المطوّقُ

فعطف عليه والده فأمره أن يراجعها ففرح بها وأعتق الخادم الذي بشّره.

إن لفضيلة الأخلاق والدين ما يبررها في حالتي الحبّ والكره كما أسلفنا، (إنّ أحبّ الرجل صاحب الأخلاق والدين أكرم، وإنْ كره لم يظلم)، وبهذا المعنى ينشد الشاعر مخاطباً زوجته التي عذلته فقال موجهاً لها ومرشداً بصدق وناصحاً برفق، وحكيماً بعمق انطلاقاً من التراحُم والترابط[3]:

---

(١) محاضرات الأدباء: ج٢، ص٤٧.

(٢) المستطرف: ج٢، ص٢٥٣.

(٣) المصدر نفسه.

فلا تتبعي العين الغويّة وانظري إلى عنصر الأحساب أين يؤول
ولا تذهبَنْ عيناك في كل شَرْبحٍ له قَصَبٌ جوف العظام أسيل
ألم تعلمي يا عمْركِ الله أنني كريمٌ على حين الكرام قليل

أما هذه المرأة، فتكنّ لزوجها الحب والتقدير، وتعتمد عليه كل الاعتماد وتكتفي منه بالحماية والرحمة والرفق والنظر إليه، فتنشد صادقة معبّرة عن عفّتها وقناعتها صيانة لكرامتها ووفاء وإخلاصاً إلى من تُحب وحفاظاً على ترابط أسرتها:

وذَخَرْتُهُ للدهر أعلم أنه كالحصْن فيه لمن يؤول مآل
ورأيته كالشمس إنْ هي لم تُنَلْ فضياؤُها والرفق منه ينال

وشاعرة أخرى تهوى زوجها المباعد لها، وتبقي على إخلاصها والوفاء له، إبقاءً للمودة وتماسُك الأسرة وترابطها فتقول:

أهابُ وأستحي وأرقُبُ وعده فلا هو يهواني ولا أنا أسأل
هو الشمس مجراها بعيد وضوءها قريب وقلبي بالبعيد موكّل

إنشاد عفيف، يفيض بالكرامة الإنسانية والكبرياء المغلفة بالعفة والود والوفاء مادّة الرحمة والتراحم قلّما نجد مثله عند النساء غير العربيات، فالعربيات عفيفات كريمات يحافظن على استمرارية الأسرة المتراحمة المترابطة القائمة على الحب والود.

من وفاء الزوجة العربية لزوجها:

تحلّت المرأة العربية بقدر كبير من الأخلاق الحميدة، وتميّزت بمكارم اللغة والكرامة والكبرياء والوفاء النادر، وحافظت على القيم والمبادئ الاجتماعية والأعراف والتقاليد المرعية في الأسرة الصغيرة والأسرة الكبيرة والقبيلة والعشيرة، وأظهرت من الوفاء للأهل قبل الزواج وللزوج بعده، وقد حفظت لنا كتب التراث على مدى الدهور وكرّ العصور من القصص

والروايات التي تثير الإعجاب والتقدير والاحترام والإطراء والتكريم، حتّى قيل إن المرأة أكثر وفاءً للرجل منه إليها.

ومن مظاهر العفة والاتّزان والوفاء للزوج وحفظه قول ليلى الأخيلية للشخص الذي أحبّها وهو توبة بن الحِمْيَر[1]:

وذي حاجةٍ قلنا له لا تَبُح بها ... فليس إليها ما حييتَ سَبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغي أنْ نخونه ... وأنت لأخرى صاحبٌ وخليلُ

ثم نستمع لهذه المرأة العربية ولا عجب أن نراها حييّة مخلصة لزوجها ووفيّة له، تبدي له من التكريم والاحترام في حياته وبعد موته، كما لو كان حياً، فتقول[2]:

وإنّي لأستحييه والتراب بيننا ... كما كنتُ أستحييه وهو يَراني

وكما أنها تقدر الرحمة والحرمة التي تكنّها لزوجها، فإنها تستعطفه بهما فتقول[3]:

إنّي أعوذ بحُرمتي عليكَ من الهوى ... مِنْ أنْ يُطاعَ لديكَ فيَّ حسودُ

لقد عرفت المرأة عظيم حقّ الزوج عليها، فعملت على اكتساب ودّه لتقوية الروابط الزوجية وتعميق جذورها، ويبدو ذلك جلياً من وصية امرأة عوف بن محلم الشيباني لابنتها ليلة زواجها، مما يعتبره الكثيرون منهاجاً قويماً لسلوك الزوجة الوفية، ولأهميّتها يحسن روايتها في هذا المقام تذكاراً لبناتنا ودليلاً على مدى ما تمتعت به الأمهات من حرص على توجيه بناتهن وإرشادهن إلى التصرف السليم والسلوك القويم في بناء بيت الزوجية والأسرة المترابطة القائمة على الودّ والحب والرحمة والتراحم، ومما أوصت به هذه

---

(١) الأمالي للقالي: ج١، ص٨٨. شاعرات العرب: ص٩١.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.

الأم ابنتها الآتي: «أي بنية، إنك مفارقة بيتك الذي منه خرجت، وعشك الذي منه درجت، إلى رجل لم تعرفيه وقرين لم تألفيه، فكوني له أمةً يكن لك عبداً، واحفظي له خصالاً عشراً يكن لك ذخراً، فأما الأولى والثانية فالرضا بالقناعة وحُسن السمع له الطاعة. وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لمواقع عينيه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشمّ أنفه منك إلاّ أطيب ريح. وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت طعامه ومنامه، فإن شدّة الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة، وأما السابعة والثامنة فالإحراز لما له والإرعاء على حشمه وعياله، وأما التاسعة والعاشرة فلا تعصي له أمراً ولا تفشي له سراً، فإنّك إن خالفت أمره أوغرت صدره، وإن أفشيت سرّه لا تأمني غدره، وإيّاك ثم إيّاك والفرح بين يديه إذا كان مغتماً، والكآبة لديه إذا كان فرحاً»[1].

كما روي أن الرسول عليه السلام خطب أم هاني من قريش ليتزوجها، فقالت: «**ولكني امرأة مؤتمة (أي أم أيتام)، فإن قمت بحق زوجي، أخاف التقصير بحق أولادي، وإن قمت بحق أولادي، أخشى أن أقصر في حق زوجي**، ﷺ، **والله إنه أحب إليّ من سمعي وبصري وحقه عظيم**»، فسرّ الرسول ﷺ من موقفها هذا وقال: «**خير من ركب الإبل صوالح نساء قريش، أحناهنّ على الولد في صغره، وأرعاهنّ للزوج واحفظهن لما في ذات يده**»[2].

وقد أمسكت الرباب بنت امرؤ القيس عن الزواج بعد وفاة زوجها الحسين بن علي رضي الله عنهما وقالت: والله لاتخذت حموا بعد رسول الله ﷺ، لقد بادلت هذه المرأة زوجها وفاءً بوفاء، كما بادلته الحب بالحب والمودة بالود، حيث كان الحسين رضي الله عنه معجباً بها وبابنتها منه (سكينة) ونظر إليهما ذات يوم وأنشد:

لعمـــرك إنّـــي لأحـــبّ داراً تحـــل بهـــا سُكينـــةُ والـــرّبـــاب

---

(١) المستطرف: ج٢، ص٢٥٠.

(٢) صحيح مسلم: ج٨، ص٤٥٢-٤٥٣.

وعندما ألحّ معاوية في طلب يد نائلة زوجة عثمان بن عفان بعد وفاته، وكانت شابة جميلة، فأعملت فكرها لردعه عن إلحاحه فتساءلت: عمَّا يعجب الرجل فيّ؟ فقالوا لها: ثناياك، فكسرتهن وبعثت بها إلى معاوية، فكانت أبلغ جواب، ليصمت ولا يعاود خطبتها، وهكذا يكون الوفاء للزوج وحفظه في مماته كما كانت تحفظه في حياته.

وهنا زوجة شابة وجميلة أخرى، يرحل زوجها ويتركها، بعد أن نسجا قصة حبّ وودّ حفرت حروفها على جدران قلبيهما، وتتعرض إلى سيل من خطبة المعجبين، وإغراءاتهم لكنها ترد عليهم بالرفض بدعوى الوفاء والمحبة، التي تعيش على ذكراها فتنشد:

كنّا كَغُصنَيْنِ من بانٍ غذاؤهما ... ماء الجداول في رَوْضاتِ جنّاتِ
فاجْتثَّ صاحبها من جَنْبِ صاحبه ... دهرٌ يكرّ بفرحاتٍ وترحاتِ
فاصرفْ عتابك عمّن ليس يصرفه ... عن الوفاء خلْب التحيّاتِ

وروى الأصمعي، أنه رأى في البادية امرأة ألصقت خدّها بقبر زوجها وهي تبكي بحزن وتنشد:

خدّي تقيك خشونة اللَّحْدِ ... وقليلةٌ لك سيّدي خدّي
يا ساكنَ القبر الذي بوفاته ... عَمِيَتْ عليّ مسالك الرُّشْدِ
اسمع أبثُّك علّتي فلعلّني ... أُطفي بذلك حرقة الوَجْدِ

ورواية طريفة عن الأصمعي أيضاً قال: دخلت مع صاحب لي مقابر الأعراب، فإذا جارية على قبر كأنها تمثال، وعليها من الحلي والحلل، لم أرَ مثله، وهي تبكي بدمع غزير وصوت شجي، فالتفت إلى صاحبي وقلت: هل رأيت أعجب من هذا؟ قال: لا والله، ثُمَّ قلت: يا هذه، أراك حزينة وما عليك زيّ الحزن، فالتفتت إليّ وأنشَدَت[1]:

---

(١) أشعار النساء: ص١٨٥، الرثاء في الجاهلية والإسلام: ص٤٢.

يا صاحبَ القبر مَن كان ينعُمُ بي بالاً ويكره في الدنيا مؤاساتي
قد زُرتُ قبركَ في حليّي وفي حِلَلي كأنني لستُ من أهل المصيباتِ
أردتُ آتيكَ فيما كنتُ أعرفُه أن قد تُسرُّ به من بَعضِ هَيئاتي
فمن رآني رأى غيرَى مولَّهةً عجيبةَ الزِّيّ تبكي بين أمواتِ

وتُفجع جليلة بنت مرة في زوجها كليب، فتقع بين نارين، نار أهلها وأخيها الذي فجعها وقتل زوجها، ونار أهل زوجها وأولادها وبناتها الذي عاشت في حمايته وتفيأت ظلال حبه ومودته، وحُسن معاشرته، وليس لها إلا أن تنفث ما يجثم على صدرها ويمسك بتلابيب أنفاسها شعراً فإنه ينم عن مدى آلامها وأحزانها على هذا الزوج طيب المعشر، في حين أنها تدعو على أخيها الذي فجعها وحطم بيتها ومستقبلها، ومما تقول في قصيدة طويلة نادبة حظها متفجعة على زوجها الحبيب[1]:

يا قتيلاً خرّب الدهر به سقفَ بيتي جميعاً من عَلي
خصّني قتل كليبٍ بلظى من ورائي ولظى مستقبلي
جلّ عندي فِعلُ جساسٍ فيا حَسْرَتي عمّا انجَلَتْ أو تنجلي
ليته كان دمي فاحتلبوا بدلاً منه دماً من أكحلي
خصّني قتل كليبٍ بلظًى من ورائي ولظى مستقبلي

ولعل من حكايات الوفاء النادر للزوجات العربيات، ما روي في مجلس هشام بن عبد الملك حيث قيل: كانت أم عطية اليشكرية عند ابن عمها غسان بن جهضم، وخاف أن تتزوج إن قضى نحبه، وتترك ولده (عقبة) يقاسي الحرمان، فقال لها: إني سائلك فاصدقيني الخبر، فقالت: والله لا أجيبك بكذب، ولا أجعله آخر حظي منك، فقال منشداً[2]:

---

(١) الرثاء في الجاهلية والإسلام: ص٤٣.

(٢) ذيل الأمالي والنوادر: ص٢٠٠.

أخبريني بالذي تريدين من بعدي ... والـذي تصنعيـن يـا أم عُقبـهْ
تحفظينني من بعد موتي لِما قد ... كان مني من حُسن خُلقٍ وصُحبه
أم تـريـديـن ذا جمـالٍ ومُلـكٍ ... وأنا في النيرانِ في سُحْق غُربهْ

فأجابته قائلة[1]:

قـد سمعـتُ الـذي تقـولُ ومـا قَـد ... خفـتَ منـه غسّـان مـن أمـر عُقبـه
أنـا مـن أحفـظ النسـاء وأرعـاهـنَّ ... لِما قد أوليتَ من حُسْن صُحْبه
سـوف أبكيـكَ مـا حييـتُ بشجـوٍ ... ومَـراثٍ أقـولهـا وفـيّ نُـدْبـه

فلما سمع منها ذلك أنشد يقول[2]:

أنـا والله واثـق بـكِ لكـن ... احتيـاطـاً أخـاف غـدر النسـاء
بعـد الأزواج يـا خيـر مـن ... عوشر فارْعي حقّي بحُسن الوفاء
إنّي قد رجوت أن تحفظي العهد ... فكـونـي إنْ مِـتُّ عنـد الـرجـاء

ثم أخذ عليها العهود، واعتقل لسانه، فلم ينطق بحرف حتى مات، فلم تمكث بعده قليلاً حتى خطبت من كل وجه، ورغب فيها الأزواج، لاجتماع الخصال الفاضلة إلى جانب الجمال الأخاذ، فقالت تجيبهم[3]:

سـأحفـظُ غسّـانـاً بُعْـدَ داره ... وأرعـاه حتّـى نلتقـي يـوم نُحشـر
وإنّي لفي شُغلٍ عن الناس كلهم ... فكفوا فما مثلي بمن مات يغدر
سـأبكـي عليـه مـا حييـتُ بـدمعـةٍ ... تجولُ على الخدّين منّي فتهمر

ولما تطاولت الأيام والليالي وتوالى الإلحاح استجابت لبعض خاطبيها وضغوطهم وإغراءاتهم، تناست عهده، وقالوا لها: من مات فقد فات، فلما

---

(١) ذيل الأمالي والنوادر: ص٢٠٠.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.

كانت الليلة التي أراد الدخول بها فيها رأت في منامها أن غسان قد أتاها وقال[1]:

غدرتِ ولم تَرعَي لبعلكِ حُرْمةً ولم تعرفي حقاً ولم تحفظي عهدا
ولم تصبري حولاً حفاظاً لصاحبٍ حلفتِ له بثّاً ولم تنجزي وعدا
غدرتِ به لمّا ثوى في ضريحه كذلك يُنسى كلّ من سكَن اللحدا

فلما سمعَت هذه الأبيات، انتبهت مرتاعة، وكأن غسان معها في جانب البيت، وأنكر ذلك من حضر من نسائها، فأنشدتهن هذه الأبيات فأخذن بها في حديث ينسيها ما هي فيه، فقالت لهن: والله ما بقي لي في الحياة من أرب، حياءً من غسان، فتغَفلَتهُن، وأخذت مديةً ولم يدركنها، حتى ذبحت نفسها، فقالت امرأة منهن هذه الأبيات[2]:

قتلتِ نفسكِ حزناً يا خيرة النسوانِ
وفَيْتِ من بعد ما قد هَمَمْتِ بالعصيانِ
وذو المعالي غفورٌ لسقطة الإنسانِ
إنَّ الوفاء من الله لم يزل بمكانِ

فلما بلغ ذلك المتزوج ما حل بها، قال: ما كان فيها مستمتع بعد غسان، فقال هشام بن عبد الملك، هكذا يكون الوفاء.

وفاء الزوج وحزنه على فقد زوجته:

من علامات الوفاء الاعتراف بالفضل لأهله، ومن هذا المنطلق فلا بد لنا أن نذكر أن من الأزواج الرجال أيضاً قد أخلصوا لزوجاتهم واعترفوا بفضلهن، بدليل أن الكثير من الأزواج قد تفجعوا على زوجاتهم الوفيات،

---

(١) ذيل الأمالي والنوادر: ص٢٠٠.
(٢) المصدر نفسه.

بعد وفاتهن، فافتقدوا الأليف العطوف، والرفيق الحنون والصدر الدافئ الرحيم، فحزنوا عليهن وبكوهن بعاطفة صادقة، فعندما توفيت سيدتنا فاطمة الزهراء رضي الله عنها، حزن عليها زوجها الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فوقف على قبرها وقال متمثلاً بقول الشاعر حيث كانت أول من مات من آل البيت بعد الرسول عليه السلام:

لكل اجتماعٍ من خليلين فرقة ... وكل الذي دون الممات قليل
وإن افتقادي واحداً بعد واحدٍ ... دليلٌ على أن لا يدومَ خليل

أما الرسول نفسه ﷺ فقد حزن على رحيل زوجته خديجة بنت خويلد وسمى العام الذي انتقلت فيه إلى الرفيق الأعلى بعام الحزن، فقيل له في ذلك فقال عليه السلام: «**لقد آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وأعطتني حين حرمني الناس، وأمنتني حين أخافني الناس، فكيف لا أحزن**»، وظل عليه السلام يكرم صويحباتها من بعدها إكراماً لها.

يتغزل الشاعر امرؤ القيس بزوجته أم جندب، وهو نوع من الإطراء والتكريم والود والإعجاب، فنسمعه ينشد:

خليلي مُرّا بي على أمّ جَندَبِ ... لنقضي حاجات الفؤاد المعذّبِ
ألَمْ تريانـي كلّما جئتُ طارقاً ... وجَدتُ بها طيباً وإن لم تُطَيّبِ
عقيلةُ أتـرابٍ لها لا ذَميمةٍ ... ولا ذات خُلْقٍ إن تأمّلته أجْنَبِ

حقيقة يكون الحزن على الزوجة أنكى وآلم، عندما تتوفى وتترك طفلاً أو طفلة، عندها يشتد تفجع الزوج ويتضاعف، وقد تعرض لمثل هذا الموقف الشاعر موَيلك بن مزموم، فأنشأ قصيدة يرثي فيها زوجته أم العلاء ويُطري أخلاقها وشمائلها التي افتقدها حيث يقول ويذكر طفلتها التي تركتها وراءها مما يزيد في أحزانه[1]:

---

(١) ديوان الحماسة، شرح التبريزي: ج١، ص٣٧٤.

أمرّ على الجَدث الذي حلّت به ... أمّ العلاء فنادِها لو تسمعُ
صلّى عليكِ الله مِنْ مفقودَةٍ ... إذ لا يلائِمُكِ المكانُ البلقَعُ
فقد تركتِ صغيرةً محرومةً ... لم تَدرِ ما جزعٌ عليك فتجزعُ
فقَدَتْ شمائلَ من لزامك حلوةً ... فتبيتُ تُسهر أهلها وتُفجّعُ
وإذا سمعتُ أنينها في ليلها ... طفَقتْ عليك شئون عيني تدمعُ

ولعل معاناة ابن الزيات أشد معاناةً من ابن مزموم، حينما توفت زوجته وشريكة عمره تاركةً له طفلاً صغيراً لا يتجاوز الثماني سنوات كما يخبرنا في إنشاده:

ألا مَن رأى الطّفل المفارق أمّه ... بعيدَ الكَرَى عيناه تبتدرانِ
يرَى كل أم وابنها غير أمّه ... يبيتان تحت الليل يَنتَحِبانِ

ثم يبوح لنا بأحاسيسه ومشاعره، وما يكنه لزوجته الحبيبة من الود والرحمة المختلط بالتكريم والحزن والألم الذي فجر دموعه في مآقيه:

فلا تلحياني إن بكيتُ فإنّما ... أداري بهذا الدّمعِ ما ترَيانِ
وإنّ مكاني في الثّرى خطّ لحده ... لمن كان في قلبي بكلّ مَكانِ
أحقّ مكانٍ بالزيارة والهوَى ... فهل أنتُما إنْ عجبْتُ تنظرانِ
هَب أنّي صَبَرتُ لِمَضاءِ عزمي ... فمن بالصبر لابن ثمانِ

لوعة ابن الزيات وأمثاله على زوجاتهم، لوعة حقيقية، صادقة، لأنها تنبعث من القلب عفو الخاطر ولأنهن يتركن فراغاً في الأسرة لا يسده غيرهن، ولنستمع إلى إنشاد هذا الشاعر لنرى الصدق في الأحاسيس والمشاعر نحو زوجته المتوفاة وولده الذي تركته:

فوالله ما أدري إذا الليل جنّني ... وذكّرنيها أيّها هو أوجعُ
أمنفصلٌ عن ثديِ أمٍّ كريمة ... أم العاشق النابي به كلّ مضجعُ

ولعل من أجمل ما قيل في رثاء الزوجات، وعكس المشاعر الصادقة والأحاسيس المعبرة عن مدى ما يكنه الزوج لزوجته ومبادلتها الود والوفاء والتكريم ومدى ما تتمتع به الزوجة من مكانة عميقة بقلب زوجها، هو ما أنشده الشاعر المعروف جرير بن عطية وقد رحلت زوجته بعد أن تقدم في السن تاركةً له أطفالاً صغاراً[1]:

لولا الحياءُ لعادني استعبارُ ... ولزرتُ قَبرَكِ والحبيبُ يُزارُ
ولّهتِ قلبي ما تمتّع نظرةً ... في اللّحْدِ حيث تمكّن الحفّارُ
ولّهتِ قلبي إذ علتني كبرةٌ ... وذوو التمائِم من بَنيكِ صغارُ
أرعى النجوم وقد مضَتْ غورية ... عصب النجوم كأنّهن صوارُ
نِعْمَ القرين وكنتِ علق مضينة ... وأرى بنصف بليّة الأحجارُ
ولقد أراكِ كُسِيتِ أجمل منظرٍ ... ومع الجمال سكينةٌ ووقارُ
والريح طيبةٌ إذا استقبلتها ... والعِرضُ لا دَنسٌ ولا خوّارُ
وعليكِ من صلواتِ ربّك كلّما ... نَصَبَ الحجيجُ ملبّيينَ وغاروا
كانت إذا هَجَرَ الخليلُ فراشَها ... خُزِنَ الحديثُ وعفّت الأسْرارُ

وهذا الشاعر عروة بن الورد يشعر بالوحشة والوحدة والأرق بعد التحاق زوجته بأهلها، واشتد حزنه وندمه عندما علم أنها لن تعود إليه فندم على سماحه لها لأنه كان شديد التعلق بها ولها مكانة في نفسه وقلبه، فيكشف لنا بأبياته التالية عن مدى تعلقه وشغفه بها، فكان كلما يرى برقاً من جهة منازل أهلها يدعو لها بالسقيا، إذ يقول[2]:

أرِقتُ وصاحَبَني ضيقٌ شديدُ ... لِبَرقٍ من تُهامةَ مستطيرِ
سقَى سلمى وأين ديار سلمَى ... إذا كانت مجاورة السريرِ

---

(١) شرح ديوان جرير: ص١٩٩.

(٢) ديوان عروة بن الورد: ص٣١.

إذا حلّت بأرضِ بني عليّ ... وأهلي بين أمرة وكيرِ
ذكرتُ منازلاً من أم وَهْبٍ ... محلّ الحيّ أسفل من نَقِيرِ
وأحْدَثُ معهدٍ من أمِّ وَهَبٍ ... معرّسنا بدارِ بني النَّضيرِ
فيا للناسِ كَيفَ غلبتُ نفسي ... على شيءٍ يَكرَهُهُ ضميري

لا أحد يستطيع الادعاء أن كل الأزواج على درجة واحدة من الوفاء وبذل العطف والحنان والود والرحمة، إذ كان بعضهم يضربون زوجاتهم. لقد شاهد صاحبنا الشاعر رجلاً يضربُ زوجته فاستغرب منه هذا الفعل الشائِن، فيتذكر زوجته الحسناء واسمها زينب ويُنشد[1]:

رأيتُ رجالاً يضربونَ نساءَهم ... فشُلَّت يميني يوم تُضْرَبُ زَينَبُ
أأضربُها من غيرِ ذَنْبٍ أتَتْ به ... فما العَدْلُ منّي ضَربُ من ليسَ مُذْنِبُ
فَزَينَبُ شمسٌ والنّساءُ كواكِبٌ ... إذا طَلَعَت لَم يَبْدُ منهنَّ كَوكَبُ

وقد بلغَ بغيرة الرجل على زوجته، أن يقدم على قتلها إذا رابه شك فيها، كما حدث للشاعر عبد السلام بن رغبان الملقب (بديك الجن)، وقد ندم بعد قتله زوجته في لحظة فقدان السيطرة على أعصابه عندما شاهدها واقفة مع غلامه حيث يقول[2]:

يا طلعةً طلَعَ الحِمامُ عليهَا ... وجَنى لها ثَمَرُ الرَّدى بيَدَيْها
روّيتُ من دمِها الثرى ولطالما ... روَّى الهوى شفتَيَّ من شَفَتَيْها
مكّنتُ سَيفي في مجال خِناقِها ... ومدامِعي تَجري على خَدّيْها
ما كان قَتلُها إلا لأنّي لم أكُنْ ... أبكي إذا سَقَطَ الغُبارُ علَيها
لكن بَخِلتُ على سِوايَ بِحبِّها ... وأنفْتُ مِن نظرِ الغُلامِ إلَيها

---

(١) المستطرف: ج٢، ص٢٠٠.

(٢) الشعر والشعراء، للدكتور مصطفى الشكعة: ص٥٨٢.

وهكذا حظي الأزواج من بعضهما البعض بكل التقدير والرعاية والحب والود الذي يحمل الدلالة على علو منزلة ومكانة الزوج وقوة الرابطة القائمة على أساس المشاركة في السراء والضراء وتنافس الأزواج في الوفاء والإخلاص والتقدير والاحترام والتكريم، وصدق الله العظيم حيث يقول في محكم التنزيل باسم الأزواج جميعاً: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، صدق الله العظيم.

ونكتفي بهذا القدر المتواضع من النصوص الشعرية على كثرتها في أمهات كتب الأدب والدواوين الشعرية، وذلك للدلالة على قوة الرابطة الزوجية والعلاقة القائمة على التقدير والاحترام الذي أوصى عليها الرسول عليه السلام، فيظل كل منهما مشدوداً للاخر لحكمة أرادها الله سبحانه لعمارة الكون وحفظ النسل وقد شددت الشريعة الإسلامية على حرية الاختيار والمفاضلة حين يتم الاندماج بين قطبي الأسرة روحاً وقلباً لتكوين أسرة مترابطة متماسكة متحابة متواددة، فينشأ الأبناء في ظلها الوارف يظللهم بالحنان والعطف والرحمة، فينشأوا أبناءً وبناتٍ إخواناً متحابين لبعضهم ولوالديهم، تربطهم العقيدة ويؤلفهم الإيمان بالله ويجمعهم الترابط والتماسُك حتى يكونوا جميعاً كما قال عليه السلام يصف به المسلمين: «**كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى**»[1] صدق رسول الله ﷺ.

فانتبهوا معشر الشباب ذكوراً وإناثاً من بعضكم البعض وليكن رائدكم عند الاختيار والمفاضلة (ذات الدين) و(ذا الأخلاق) وليس الشكل والمنظر

---

(١) صحيح البخاري: حديث رقم ٥٦٦٥ ج٥، ص٢٢٣٨.

على حساب الجوهر حتى تكون تربية الأبناء متكاملة في ظل أسرة تسودها المبادئ الإسلامية السمحة، وتوجيههم وإرشادهم سليم قائِم على العقيدة والإيمان ومكارم الأخلاق، وهي كلها تحصينات ضد الانحرافات والانحلال والهبوط في هاوية السقوط في حبائِل الغزو الثقافي لإفساد الأبناء وإبعادهم عن دينهم الذي هو عصمة أمرهم في الدنيا والاخرة ولتفكيك الأسرة المسلمة التي ظلت مترابطة متماسكة أمام كل المحاولات قروناً طويلة. اللهم احمينا واحم أبناءنا وارحم آباءنا، آمين.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

خلاصة القَول

لقد تأثر الكاتب لحالة الأسرة العربية في العصر الحاضر، وما أصاب القيم الأدبية والأخلاقية والعادات والتقاليد الحميدة وروابط القربى من وهن وضعف الفكر على العلاقة فيما بين أفرادها، فأضاعوا صلات الرحم والتراحم والتواد والمسامحة والرحمة فيما بينهم، تلك القيم القائمة أساساً على المبادئ الإسلامية المتمثلة في قوله عليه السلام: «**الدين المعاملة**»، وقوله: «**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»، قيم عقائدية إيمانية واجب التمسك بها وتطبيقها.

لقد أراد الكاتب أن ينبه إلى هذه الحالة التي وصلتها الأسرة العربية ويدعو الاباء والأمهات والأبناء والبنات والأزواج والإخوان إلى التمسك بروابط القربى والأخلاق الفاضلة التي تدعو إلى التعامل الودود وإقامة العلاقات الطيبة فيما بينهم، وأن لا يتخلوا عن العادات والتقاليد الحميدة والقيم الدينية الإسلامية التي تحض على الصدق والعدل ونصرة الأخ ظالماً أو مظلوماً، كما تؤكد على رحمة الكبير للصغير، وتوقير الصغير للكبير، وجميعها أسلحة قوية وفعالة للحماية والتحصين ضد جميع أنواع الغزو الثقافي، وما يستخدمه من إغراءات تقود إلى الانحراف والسقوط في الهاوية.

فإن هذه الأسلحة إذا ما زرعناها في نفوس أبنائنا وقلوبهم تقف سداً منيعاً وحصناً قوياً، وتعينهم على مواجهة كافة أشكال الغزو الثقافي. وقد عمد الكاتب إلى التراث العربي والإسلامي فجاء بشواهد من أقوال وأفعال الاباء والأمهات والأبناء والأزواج والإخوان من الشعراء والحكماء العرب، التي يعتقد أنها مؤثرة ومعبرة وكانوا يطبقونها في التعامل فيما بينهم كأفراد

أسرة وأفراد مجتمع، وكلها تنم عن الرحمة والتراحم وقوة أواصر القربى القائمة على الحب والود والتماسك والترابط، وقد لفتت هذه القيم والمبادى أنظار الكثير من غير المسلمين فأحبوها واعتنقوها وطبقوها وتعاملوا بها، وقد اعتنقوا الدين الإسلامي إعجاباً وتأثراً بصدق المشاعر والأحاسيس الأخلاقية بين أفراد الأسرة واستقامة المبادئ القائمة على الصدق والعدل والمساواة والتسامح والتراحُم والتواد والتوحيد لله، لا عجب إن استأثرت بالاهتمام الديني والروحي والفكري ودراسات على مدى العصور السابقة واللاحقة لمكانتها وأهميتها، باعتبارها الأساس المتين في حفظ بناء المجتمع الضخم العظيم شامخاً قوياً متيناً متماسكاً مترابطاً مقاوماً كل الأعاصير، التي تسلطها عليه أعداء الأخلاق والفضائل في مجتمعاتنا الإسلامية، بغية تفكيك روابط التراحم بين أفراد الأسرة وتقطيع صلات الرحم، للوصول إلى هدفهم في إبعاد الناس عن دينهم الذي هو عصمة أمرهم في الدنيا والاخرة، وبالتالي تذهب ريحهم وتتبخر قوتهم المادية والمعنوية ويسهل السيطرة على تسييرهم وفق ما يشتهون (لا سمح الله). اللهم لا تحقق لأعداء الأخلاق والفضائل غاية، اللهم آمين. وتقبل منا صالح الأعمال كافة، وهذا العمل الخالص لوجه الله خاصة، والحمد لله في الأولين والآخرين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ ابن سناء الملك، حياته وشعره: تحقيق محمد إبراهيم نصر، دار الكتاب العربي ـ القاهرة، (د.ت).
٣ ـ أخبار الخوارج من كتاب الكامل للمبرد: دار الفكر ـ بيروت، (د.ت).
٤ ـ الأسرة والحياة العائلية: د. سناء الخولي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٤م.
٥ ـ الأسرة ومشكلاتها: محمود حسن، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.
٦ ـ الأسرة والطفولة: خليل الفاعوري، لا توجد دار طباعة، ١٩٩٤م.
٧ ـ أشعار النساء: أبو عبد الله المرزباني، تحقيق سامي مكي وهلال ناجي، دار الرسالة ـ بغداد، (د.ت).
٨ ـ الأصمعيات: أبو سعيد عبد الملك بن قريب، تحقيق عبد السلام هارون وأحمد شاكر، دار المعارف ـ القاهرة، ١٩٦٧م.
٩ ـ الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني، دار الثقافة، بيروت ـ لبنان، ١٩٦٤م.
١٠ـ الأمالي: أبو علي إسماعيل القالي، دار الآفاق الجديدة، بيروت ـ لبنان، ١٩٨٠م.
١١ـ البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل ـ بيروت، لبنان، ١٩٤٨م.
١٢ـ تاريخ الأدب العربي: أحمد حسن الزيات، دار الثقافة، بيروت ـ لبنان، ١٩٨٢م.
١٣ـ تجديد ذكرى أبي العلاء: د. طه حسين، دار المعارف ـ القاهرة، (د.ت).
١٤ـ تربية الأولاد في الإسلام: عبد الله علوان، دار السلام، بيروت ـ لبنان، ١٩٧٨م.
١٥ـ التعازي والمراثي: تحقيق الدكتور ذو الفقار علي مالك، باكستان ـ رسالة دكتوراه قدمت في جامعة كمبريدج/ بريطانيا، ١٩٨٤.
١٦ـ جمهرة أشعار العرب: أبو زيد محمد القرشي، دار المسيرة ـ بيروت، ١٩٨٣م.

١٧ـ جواهر البخاري: شرح القسطلاني، المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة، (د.ت).
١٨ـ ديوان ابن الرومي: تحقيق حسين نصار، دار الكتب العربية ـ القاهرة، ١٩٧٣م، (د.ت).
١٩ـ ديوان أبو فراس الحمداني: شرح د. يوسف فرحات، دار الجليل، بيروت، ٢٠٠٢م.
٢٠ـ ديوان أمية بن أبي الصلت: المطبعة الوطنية ـ بيروت، ١٩٧٥م.
٢١ـ ديوان الأعشى: شرح وتعليق الدكتور محمد محمد حسين، دار النهضة العربية، بيروت ـ لبنان، ١٩٧٢م.
٢٢ـ ديوان التهامي: منشورات المكتب الإسلامي ـ دمشق، ١٩٦٤م.
٢٣ـ ديوان الحطيئة برواية ابن السكيت: دار الكتاب العربي ـ بيروت، ١٩٩٥م.
٢٤ـ ديوان الحماسة: أبو زكريا يحيى التبريزي، دار القلم، بيروت ـ لبنان، (د.ت).
٢٥ـ ديوان حافظ إبراهيم: ضبطه وصححه وشرحه: أحمد أمين وزميليه ـ دار الجيل، بيروت ـ لبنان، ١٩٨٨م.
٢٦ـ ديوان الخنساء: دار كرم ـ دمشق، (د.ت).
٢٧ـ ديوان الشنفرى: جمعه وحققه، أميل بديع عقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩١م.
٢٨ـ ديوان عروة بن الورد: دار صادر، بيروت ـ لبنان، (د.ت).
٢٩ـ ديوان لبيد بن أبي ربيعة: دار صادر، بيروت ـ لبنان، ١٩٦٦م.
٣٠ـ ديوان المتنبي: دار صادر، بيروت ـ لبنان، (د.ت).
٣١ـ ذيل الأمالي والنوادر: دار الآفاق الجديدة، بيروت ـ لبنان، ١٩٨٠م.
٣٢ـ الرثاء في الجاهلية والإسلام: دكتور حسين جمعة، دار العلم ـ دمشق ١٩٩١م.
٣٣ـ رسائل الجاحظ: تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ـ مصر، ١٩٧٩م.
٣٤ـ رياض الصالحين: محيي الدين النووي، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، (د.ت).

٣٥ـ زهر الآداب وثمر الألباب: أبو إسحق إبراهيم الحصري، القيرواني، تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة، ١٩٥٣م.
٣٦ـ السيرة النبوية: لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، دار الكنوز الذهبية، (د.ت).
٣٧ـ الشاعرات من النساء: سليم التنير، دار الكتاب العربي ـ دمشق، ١٩٨٨م.
٣٨ـ شاعرات العرب: عبد البديع صقر، منشورات المكتب الإسلامي ـ دمشق، (د.ت).
٣٩ـ شرح ديوان جرير: شرح محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، دار الأندلس، بيروت، (د.ت).
٤٠ـ شرح ديوان حسان بن ثابت: تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي ـ دمشق، ١٩٨١م.
٤١ـ شرح المعلقات السبع: للزوزني، دار بيروت للنشر ـ لبنان، ١٩٨٠م.
٤٢ـ الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي: د. يوسف خليف ـ مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٥٩م.
٤٣ـ الشنفرى شاعر الصعاليك: د. عبد الحليم حنفي، المطبعة النموذجية ـ القاهرة، (د.ت).
٤٤ـ شعر الرثاء العربي: د. عبد الرشيد عبد العزيز سالم، وكالة المطبوعات ـ الكويت، ١٩٨٢م.
٤٥ـ الشوقيات: أحمد شوقي، دار الفكر ـ القاهرة، (د.ت).
٤٦ـ صحيح البخاري: الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق الدكتور مصطفى ذيب البغا، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٨٧م.
٤٧ـ صحيح مسلم: أبو الحسن مسلم بن الحاج القشيري النيسابوري، ضبط وتصحيح محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٤م.
٤٨ـ الطفل والتراث: محمد إبراهيم حور، دائرة الإعلام والثقافة، الشارقة ـ الإمارات العربية المتحدة، ١٩٩٣م.
٤٩ـ العقد الفريد: أحمد بن محمد بن عبد ربه، شرح أحمد أمين وآخرون، لجنة التأليف والنشر ـ القاهرة، ١٩٦٥م.

٥٠ـ علم اجتماع الأسرة: د. معن خليل، جامعة اليرموك، دار الشروق، ١٩٩٤م.
٥١ـ عيون الأخبار: أبو محمد بن مسلم الدينوري، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة، ١٩٧٣م.
٥٢ـ القاموس المحيط: محي الدين الفيروز أبادي، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، (د.ت).
٥٣ـ الكامل في الأدب واللغة: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق أحمد شاكر، مطبعة الحلبي ـ القاهرة، (د.ت).
٥٤ـ مئة أوائل من النساء: سليمان سليم البواب، دار الحكمة للطباعة والنشر ـ دمشق، ١٩٨٦م.
٥٥ـ المحاسن والمساوئ: إبراهيم بن محمد البيهقي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر ـ القاهرة، (د.ت).
٥٦ـ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء: أبو القاسم حسين الراغب الأصبهاني، دار مكتبة الحياة ـ بيروت، (د.ت).
٥٧ـ المرأة في العصر الجاهلي: أحمد محمد الحوفي، مكتبة نهضة مصر ـ القاهرة، ١٩٥٤م.
٥٨ـ المستطرف في كل فن مستظرف: شهاب الدين محمد الأبشيهي، دار إحياء التراث العربي ـ القاهرة، (د.ت).
٥٩ـ المفضّليات: المفضل بن محمد الضبي، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون، بيروت ـ لبنان، ١٩٦٧م.
٦٠ـ مقدمة ابن خلدون: دار القلم ـ بيروت، لبنان، ١٩٨١م.
٦١ـ نساء فاضلات: عبد البديع صقر، منشورات المكتب الإسلامي ـ دمشق، ١٩٨٤م.
٦٢ـ نساء لهن في التاريخ نصيب: الدكتور إبراهيم علي حسن، مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة، ١٩٨١م.
٦٣ـ نهاية الأرب في فنون الأدب: لشهاب الدين أحمد النويري، دار الكتب المصرية ـ القاهرة، (د.ت).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
إهداء	٧
تمهيد	٩
الأسرة وأثرها في حياة أبنائها	١٧
مكانة الآباء في الأسرة	٣٠
مكانة الأمهات في الأسرة	٤٢
مكانة الأطفال في الأسرة	٦٠
مكانة الأبناء في الأسرة	٧٢
مكانة البنات في الأسرة	٨٦
مكانة الأخوان في الأسرة	١٠٥
مكانة الأزواج في الأسرة	١٢٤
خلاصة القول	١٤٥
المصادر و المراجع	١٤٧
فهرس المحتويات	١٥١

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

هذا الكتاب

يبدو تأثر الكاتب لحال الأسرة العربية في العصر الحاضر بادياً للعيان، وجُلّ تأثره لتراجع القيم الأدبية والأخلاقية، وما اعترى روابط القربى والتراحم من الضعف والتفكك، وقطع صلات التسامح والتوادّ في العصر الحالي، مما حزّ في نفسه.

لهذا تطلع الكاتب من دراسته معتمداً الأخبار الطريفة والمفيدة، لتحقيق هدفه من خلال إبراز مكارم أخلاق الآباء والأجداد والمبادئ التي عاشوا حياتهم على أساسها، وذلك بالتركيز على ما اغترفه من ديوان الأدب العربي، الموثق على لسان الأدباء والشعراء، والمؤيد بآيات من القرآن الكريم ومن أحاديث الرسول عليه السلام، مبتعداً عن الإطالة والإسهاب، ينثرها في أحضان أركان الأسرة (الآباء، والأبناء، والأخوان، والأزواج) علّهم يميزوا بين القيم العظيمة التي تحصّن بها السلف ضد الإنحراف والإنجراف، وتفكك الروابط بها، وتأثيرها في تمتين أواصر المحبة والرحمة بينهم، وبين الهجمة اللاأخلاقية التي يتعرض لها الخلف من أبنائنا وبناتنا هذه الأيام، ويذكّر الآباء والأمهات بالواجبات والمسؤوليات الملقاة على كواهلهم لحفظ أولادهم من السقوط إلى الهاوية.

داعياً الله الهداية والسداد والرشاد والثواب.

Dar Majdalawi Pub.& Dis.
Telefax: 5349497 - 5349499
P.O.Box: 1758 Aljubaiha
11941 Amman- Jordan

دار مجدلاوي للنشر والتوزيع
تليفاكس: ٥٣٤٩٤٩٧ - ٥٣٤٩٤٩٩
ص.ب ١٧٥٨ الجبيهة ١١٩٤١
عمان - الاردن

www.majdalawibooks.com
E -mail: customer@majdalawibooks.com

تصميم: بشار هارديني